امرأة بلا حب

رِوَايَة

منى الشيجي

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى وطن تتشكل بين أنامله حدودي

إليك وحدك

منى

obeikandl.com

الفصل الأول

أكتب الآن، بعد أن فُرض عليّ رفقة السهر والوحدة، ليس يقطع الصمت حولى سوى حفيف الذكريات، لا أدرى لماذا بعد مرور هذه الفترة التى تقاسمتها، مع ظل وحدتى، أريد الكتابة عن حياتى، أو بمعنى أصدق رحلتى التى أقدمت منذ نعومة أظافرى، أن أجاذبها المد والجزر، فى بحر لجّىّ، هى كوحدتى مفروضة على أيامى، مسطورة فى بردية، تتدلى فى مهب الريح، كبندول الساعة القديمة، المعلقة الإرث الوحيد الذى حظينا به من جدى، استغرقت من سطورها ثلاثين عاماً، أردت أن أجسد أطياف الذكرى، التى تتراءى لى ربما أجد فى صيغتها كلمات، حضنا يحتوى تلك المخاوف التى تحرمنى النوم..

غامت الدنيا فى نظرى، امتلأت سحاباً أنتقل بين نتوءاته، كى أغترف من شفافيته ونقائه، ما يذهب الصدأ الراكد فى بئر الحظ الجدب، تعبت من مد يدى فى صندوق رأسى ووأد ذكريات، لا أريد ان أكشف عوراتها أو يصيبنى منها مس، لهول ما تؤلمنى.. أصادر حقها فى أن تطفو على سطح أفكارى... أجذبها إلى

القعر المجوف، كى لا تعكر صفو زيف أيامى، أخاف ان أصطدم بنفسى فى المرآة، فهى حتماً ستشير إلىّ بأصابع يدها العشرة، لتسأل: هل أنت سعيدة؟..

وحتما سيحمل الرد تهتهة الخائف، المتحامل على ضعفه، ليس عن حنكة ولا ثقة فى صلابة بنيانه؛ فجذوره رخوة، وإنما رد القاصر فى الإرادة.

أسيرة في فصول الحكايا، تطلق لعينيها رصد لقطات أرشيفية، تدخرها فى عقلها الباطن، أبحث فى مهد الطفولة عن علاج لامرأة تتمنى أبسط حقوق الأحياء، الإغفاءة على وسادة وترك الباب الخلفى لقطيع الأفكار.

أشعر بساكن رحمي يعترض على تواتر الكلمات المحتشدة على باب ذاكرتي، يشعر بطعم غير مستساغ لجثث الحروف المنتحرة على لساني من عصابة أربطها على حنجرة تبتلع صراخ البأس، أنه يعترض بشكل قاس يتخذ أشكال عديدة، لكن أقساها الشكل المتكور كمن يخمش جدار بطني ثم يركلني.. يدفعني الفضول إلى رفع طرف ثوبي وأنا أجزم أني سأري ذلك المخلوق

الشمعي الذي لا لون أو تفاصيل محددة، سوى تحجره وانقباضه المفاجيء كحكم المباراة الذي بغتة يطلق صفير إنذار للمخطيء. .

أنظر لبشرة بطني. . نعم ها هو المحتج يسهب في إعلان تمرده، أحسده على قوة حجته وحماسه وقراره الحازم الذي لم يتوان على بثه بشكل قاطع محذرا إياي بالتروي وإلا سيكرر عقابه المؤلم ويعيد الكرة فيتحول من نطفة إلى أشكال يابسة من مواد خام صلدة تنقر جدار الرحم بلا هوادة.

أغمض عينيّ متألمة أتحامل على وجعي وأنا أضع يدي على بطني أنتظر أن يعود الساكن إلى مهده الوثير من خيوط ودماء، أتابع تحركه الأشكال الهلامية التي يتخذها. . أصدر أهة. . أنفاسي لاهثة أشعر باختناق كمن ينتظر أن تمر شاحنة عملاقة من بوابة في حجم ثقب الإبرة، ها هو يبعد عن شاطيء بطني ويسبح كسمك (البسارية) إلى عمق قراره.

يا مضغة تسكن رحمي دون إرادة مني تعلقت في ماعوني، لو كانت أعضاء الجسم تتواءم مع مشاعرنا، أو يكون لنا سيطرة على أطراف نشوتنا لكنت جمعت تلك الأطراف التي تهدلت على الرغم مني. . حين تلامست مع من اخترق حصنها على مضض، ولكن

الصعود إلى نهاية الدرج كانت بلا وعي أو إدراك ؛ فالشبق حين يدرك أجسادنا يذيب حوائط الحذر ويصادر حقنا في منطقية الحس فلا يصبح لنا دلالة شعورية غير اكتمال الوهج الذي يعتلي متون المشاعر، مازلت ألوم نفسي أني لم أقاوم. . لم أمنع نشوتي أن تغرر بي لتكمل ما سقطت فيه، كيف لم أذود في الدفاع عن حضني. . أين إرداتي في التحكم برفضي؟ . . كيف استباح الهجوم وسباني فريسة. . نعم عرف اللغة التي يتعامل بها مع تلك الحواس فلم آمن غدره، كانت عطشي فلم تتمالك ضعفها. . بل سلمت وجهرت بعطشها بل انهالت تتهافت بكل ما لديها من وهن لترتق هذا النزق ونضوب بئرها، بل ربما أسلمت له كل السبل لهذا الأسر.

لا تغضب مني يا نبتي الذي ارتوي به جدبي، أعترف لك الآن بمشاركتي في الفعل، ولكني سأكمل اعترافي بأني لم أسع يوما لتلتقط أحشائي بك، ربما لو عرفت أنك ستدخل مداري وتتشبث بي ربما حاولت الفرار من ضعفي ومن شبقي اللعين، ربما لو منحتني فرصة لتعرف تفاصيل حياتي لوجدت لي عذرا. . حاول أن تتريث في حكمك وغادر منصة القضاء وعد معي طفلا. .

لما وضعت أمى كل ما يلزم أبى من أدوات الحلاقة وبعض الملابس الداخلية فى حقيبة صغيرة بالإضافة إلى بعض المأكولات التى يتزود بها فى سفره، ارتدى بدلته الخضراء الداكنة يختلط بها بعض رتوش بيضاء، وضع الكاب على رأسه، وهو جالس على الأرض، يحتوى إخوتى: أحمد، مصطفى، ومحمود.. كنت أنا أصغرهم، ثم يأخذنى من حضن أمى ليغدق علىّ بالقُبل ويحتضننى بقوة.. هكذا كانت أمى تحكى لى عن أبى، كلما تندرت على قصر قامتى، عندما كنت أحاول التسابق مع إخوتى إلى حضن أبى، دائماً كنت أنكفىء على وجهى، كم كنت عنيدة، فأعيد الكرة وهو يضحك، فيسرع يحملنى من الارض ويرفعنى لأعلى قائلاً:

- ابنتى العنيدة.

كثيراً ما كنت أنظر لصورته العسكرية المعلقة على الحائط: وجهه النحيف، عيناه السوداوان، شاربه الكثيف.. إنها الحرب ببشاعة اسمها وتفاصيلها وما تخلفه فى الصدور من قلق وحزن، كان المال الزهيد الذى يتقاضاه أبى من الجيش، لا يكفى حتى لسد حد الكفاف، لكن الأزمات كما يقولون تخلق نوعاً من التآزر

والترابط بين الناس، فالكل يغمس لقمته فى إناء واحد، لازلت أذكر تلك الأطباق المغطاة، التى كان الجيران يتبادلونها وإن كانت زهيدة القيمة، لكنها تكفى لسد رمق الجوع، حتى أصحاب محلات الأقمشة كانوا يتبرعون بعدة أمتار من القماش لعمل ملابس لجرحى الحرب، فالسيدات اللاتى يجيدن الحياكة لم يدخرن جهداً فى ذلك ومنهن جارتنا (أم مايكل)، الجميع يتشاركن فى منظومة التعاون لأنهن جميعاً ينتظرن نتائج متشابهة، تتروح بين أرملة و يتيم، وإن خفت الوطأة يكون بينهم مصاب بعجز، ولكن بالطبع هناك فئات أخرى، أقل ما توصف به أنها متسلقة، تنتهز الفرصة لتبنى مملكتها العنكبوتية، فوق جثث وآلام الناس، فهى بالنسبة لها مرحلة انتقالية، لتطفو إلى مستوى الطبقة التى تملأ جرارها من دموع الناس، ظهرت مسميات جديدة منها السوق السوداء، نظرية تجارية واقتصادية، اختلقها شخوص تفتقد أبسط أوليات القراءة والاطلاع لكنها تملك حاسة استشعار لاقتناص الموجة التى تفرى كل المعانى الإنسانية التى يمكن أن تستحلب القلب بعض الرحمة، فى التعامل مع مجتمع غالبيته العظمى، ترضخ تحت أنياب الحاجة والقهر والجوع.

الآن نتوقف قليلا لأسالك.. صغيري هل تشعرين بالجوع؟.. تري هل باغتك سؤالي؟

أشعر بنفسي تهفو لحبات العنب.. أجد طعمه على لساني، لا أتحكم في رغبتي تلك أيضا.. أتلذذ بطعم العنب بنهم.. أي عنب هذا الذي تتوق إليه نفسي في موسم ليس به هذا النوع من الفاكهة!!.. لا أقاوم رغبتي فيه.. أحرك لساني كي أجتر أي طعم له في ذاكراتي.. لا شيء يبلل لساني، كأنما غدا فاكهة محرمة؛ فدوما النفس لا تشتهي سوى الشيء الممنوع المغلف بلفائف التحريم.. أتلهف عليه بنفس تلهفي على تلك القبلة التي أطبقت على شفتيّ في رحلتي..

ما أكثر الحواس التي تجعلنا عبيدا لها.. لا تغضب فليس عندي قائمة سوداء لعلاقتي بالرجال.. تمهل لا تنظر إليّ بغضب وتجهم.. لنعد إلى الطفولة، ولكن دعني أسألك هل وجدت فيما رويته لك بعضا من الغفران لظروف حرمتني دفء حضان أبي وشقاء طفولتي.. لا عليك.. لنكمل معا.

تمر أيام الانتظار طويلة مريرة على وتيرة واحدة، أزيز الطائرات من وقت لأخر يعم المدن، فيصاب الجميع بحالة هلع،

الكل شاخص بصره إلى السماء، متضرعاً لله، لانتهاء حلقات العذاب المتصل التى تدور فى رحاها رقاب الشعب. أصبحت شوارع المدينة متجردة من مظاهر الحياة فيها، وإن حاول البعض التذرع بالحيل، حتى لا تنساب لحظات العمر ولا تطبق اليد إلا على خواء، ولكن هل تجتمع السعادة فى قلوب استعمرها الخوف، الكل يخاف نهار اليوم التالى، الذى قد يحمل نعى استشهاد أحد أبناء الحى، حتى نور المصباح مخنوق من التسلل من مصراع الشباك أو البلكونة، التى تدثرت بورق أزرق غامق كنوع من التخفى وسط الظلام، الابتسامة كانت تتداول بين الناس، مجرد شفاه تفصلها مسافة، لا تعي إذا كانت تنفرج عن آهة مكبوتة، أو مجرد إيماءة بأن هذا الانشطار يحمل معنى مشدوها لا يريد النطق به، أمى كانت تحمل هذا النوع من الابتسام وتعزى غياب أبى، بأن هذه هى المرة الأخيرة لاستدعائه فى الجيش، وسيعود مع غيره من أبناء الحارة، لتعود حياتنا مستقرة، وستتذوق طعاماً فاخراً، ربما لا أعرف اسمه ولكنه بالتأكيد سيكون لونه مختلفا عن اللون الأخضر، الذى دأبنا على تناوله والمسمى (البصارة)، هنالك اللحم الذى أغلظت أمي في القسم أنها ستعده لنا عند عودته، على طبق كبير من الأرز والخبز، من القروش التى

تدخرها من عملها فى بيت المعلم (شحاتة) الجزار، فهو يمتلك عدة محلات للجزارة، وفيلا فى منطقة اسمها (سان ستيفانو) سمعت أمى تقولها لجارتنا (سعاد)، وإن بدأت بشائر تغير لون الطعام كل يوم جمعة، عند عودة أمى من عملها، حيث تجود عليها (الست رجاء) زوجة المعلم، بما يفيض من فتات، بل وزاد عالمنا بمعرفة ما غاب عن تصورنا من وجود أجهزة حديثة، لم تخطر على بال تلك العقول التى حدث لآفاقها ضمور واهترأت مصادر الإبداع داخلها من شدة الجوع، تحكى أمى عن وجود جهاز تتحرك به أشخاص لتحكى قصصاً جميلة، رغم أنه موصل فقط بسلك كهربائى، حتى أن أمى وقفت خلفه لتجد مدخلاً أو مخرجاً لهم، دولاب أبيض به صقيع لا يحتمل، يمتلأ بكل ما لذ وطاب، لا يذوب كألواح الثلج، الذى نضعه فوق المياه الغازية، وعندما تمنحنا (الست رجاء) لحماً نيئاً، كانت أمي تعطى جارتنا سعاد جزءا منه، فهى تستضيفنا أنا وإخوتى هذا اليوم، حتى تعود أمى من عملها.

استمر غياب أبى، مما زاد شقاء أمى وعجزت عن الاستمرار فى إخفاء هذا القلق، حتى وصلنا خطاب ينعى استشهاده، أخذت تترنح في ردهة الألم عبثا تحاول أن تمزق قرائن الواقع،

تقطف من خيوط الهواء شذرات الكلمات التي تحمل الخبر، شعرت بأن الأرض تميد من تحتها، لم يعد هناك ما يصبرها على ضيق الحال، فالإنسان عندما يملك الأمل يمكنه أن يتحمل معاناته، فهو يستطيع خداع يأسه عندما يمنى نفسه أن هناك قادماً سيخلصه من المعاناة، رغم جهله بالوقت وعندما يفقده يكون أضعف من أن يدرأ الوهم الذى يحيل أيامه إلى كدر متصل، شعرت بكيانها ينهار داخل جسدها الضئيل، وعمرها الذى لم يتعدّ العشرين عاماً وأربعة أطفال.

بعد فترة حصلنا على معاش زهيد، لا يكفى لمصروف الخبز فقط، اضطرت أمى للعمل الأسبوع كله، لإعالتنا ودفع مصروفات المدرسة لأحمد الذى التحق بالمدرسة الابتدائية، وقد رفضت وبإصرار أن يعمل أحمد فى أي ورشة لتعليم صنعة، وذلك من منطلق الترفق بنفسها وألا تتحمل فوق طاقتها، وأن تعيش كمن يساويها فى الظروف، فلن تصعد المياه فى العالى فكان ردها لا يتغير:

- إن قلامة ظفر لأى ابن لى تساوى عشرة من أبناء الأغنياء.

قررت أن تقف على شفا الجرف، تخرج منذ الصباح الباكر وهى تملى تعليماتها اليومية، أن نقبع داخل حجرتنا، التى لا تحتوى إلا على سرير نحاسى مرتفع، له أربعة أعمدة تربط بينها ستائر بيضاء، وتضع لنا كرسياً خشبى بجوار السرير، لنتمكن من الصعود عليه، كنبة كبيرة لها تجويف عميق، نضع بها الثياب، مكسوة بالكردونيه، النملية بداخلها أطباق الأكل ريثما تعود، بما يفيض من أطباق عائلة المعلم شحاتة، وابور الجاز الذى يحظر علينا الاقتراب منه تحت أي ظرف من الظروف.

تمر الأيام تزيد مصروفاتنا، لدخول مصطفى ثم محمود المدرسة، الذي كان يعانى من ضعف بصره لذلك كان يحتاج نظارة طبية، وقد شرعت أمي في عملها فور التحاقه بالمدرسة وأمى لا تكل ولا تتبرم من الطلبات التى تزيد عليها.

رغم أن أمي كانت تجيد معرفة تصاوير الحروف منفردة إلا أنها تتعثر في قوافلها حين تتشابك فتتحول لشفرة يستعصي عليها فك طلاسمها. . لم تفتح باب حجرتها إلا للجارات اللاتى شهد لهن الجميع بحسن السيرة، والفضليات وتنأى عن اللاتى تحوم حولهن الشبهات، مثل الأرملة (سوسو) المقيمة فى نفس المنزل فى الدور

الثانى، والتى لا يصدق أهل الحارة انها تعمل ممرضة فى المستشفى، وقد تسنى لهم التوصل لهذه الفكرة من مظهرها وطريقة وضع مساحيق التجميل، ارتدائها الملابس الحريرية اللامعة الملتصقة بجسدها مع وضع حزام مذهب فى خصرها، وتكشف عن ساقيها البضتين، ضحكتها الداعرة مع معظم رجال الحارة، وكما يقولون العنوان هو خير دليل على المحتوى، بل كانت ترد هداياها المتمثلة فى طبق الأرز باللبن المجمل بالمكسرات، أو قطعة قماش ذات خيوط ذهبية، خوفاً على سمعتها التى لا تقدر بثمن، دائما كانت تقول لنا:

- الفقراء عندهم كنز، لا يقدر بثمن، وهو الشرف والسمعة الطيبة.

عندما التحق إخوتى بالمدرسة، اضطرت أمى أن تأخذنى معها لعملها، فلم تجد من تتركنى عنده، بعد وفاة جارتنا سعاد رحمها الله، هناك رأيت عالماً غريباً، رغم ما تحكيه أمى عنه، لكن دخوله له مذاق مختلف وشعور غريب، كنت صامتة أتفحص كل شىء، أأبى تناول ما تقدمه صاحبة المنزل، رغم شعورى بالجوع، كانت لى عزة نفس أمى، وهى عرفت عنى ذلك، فكانت تدخر لى كل

شيء حتى نعود لحجرتنا، هناك استشعرت ضآلة كل ما لدى من ثياب ودمى صنعتها لى أم مايكل من قصاقيص القماش التى تحوكها للجيران، عندما رأيت ابنتها ميرفت، ترتدى فستاناً ألوانه مبهجة، له رباط من الخلف معقود على شكل (فيونكة) وحذاء أبيض بكعب صغير، شعرها مجدول ضفيرتين، وإن كان مجعداً، أسود اللون. .

هى الآخرى تفحصت ثوبى الرث والشبشب البلاستيك، الذى ألبسه فى قدمىّ النحيفتين، وشعرى الأشقر المتناثر والمتمرد على الشريط، الذى لا يستوعب نعومة شعرى، كانت تجلس على أرجوحة فى حديقة الفيلا، تهز حبالها المربية، تتعالى ضحكتها مع علو وهبوط المرجيحة، نادتها أمها من الشرفة لتناول الغداء، وعندما نزلت من المرجيحة تساقطت من جيب فستانها حلوى ملونة وآخرى مغلفة بورق فضى، لم تهتم بسقوطها. . دفعنى الفضول لتفحص هذه الحلوى التى اختلطت بتراب الأرض، عندما اختفت هى والمربية لملمتها، ووضعتها فى جيبى بسرعة. . عندما نادتنى أمى، بعد انتهاء عملها، عرفت منها أن الحلوى اسمها بونبون وشيكولاتة.

استيقظ صغيري . . لا تنم . . مازالت لديّ رغبة أن تكون رفيقي في السهر، انتظرني دقيقة . .

اتجهت نحو حجرة الصالون وفتحت علبة الشيكولاته وأخذت حبتين منها ثم أعدتها على المنضدة كما هي .

صغيري كي لا تحتار في طعم الشيكولاتة أو ربما لا أريدك أن تشتاق لطعمها كما كنت أنا . . مازال أمامك شهور عدة لتخرج من مكمنك وأخربي حتى تنبت لك أسنان . . اسمح لي أن أرسل لك إحداها ولتكن منصفا واترك لي الأخرى . .

فضضت أغلفة القطعتين وأخذت أمضغهما على مهل وأفري المكسرات المخبوءة داخلهما وأرسلها لك مع الحبل الذي يخترق أحشائي ويصب فيه العمر والغذاء والأنفاس . . تذوق صغيري وتلذذ بالطعم . . أخشى أن يكون أصابك إحباط من قصتي البائسة تلك أو ربما هي هدية لصبرك معي على تجرع كلماتي المرة .

الفصل الثانى

تتعرى صناجة المشاعر حين تداعب خيوطها هفيف كلمة من شخص يجيد طرق الأواني الفارغة فتصم من هول دوامة الضجيج وارتعاش جوفها الظامىء الذي يحرر شهقاته في كهف الرغبة وفي لحظة اليقين ينهر فحيح تنهيده العابث، جب سبحت فيه روح أمي ذات الأعوام النضرة حين باغت أمى عرض صاحبة المنزل (أم سمير) بالزواج.. تسمع لكلامها متأففة، لم تنطق سوى:

- اشربى الشاى يا حاجة.

بعد أن أفرغت محتوى الكوب فى حلقها، نهضت تعدل من وضع ثيابها، وتمسد على شعرها، دست أجرة الحجرة فى صدرها، أخذت تربت على كتف أمى قائلة:

- فكرى... الفرصة تكون مرة واحدة.

ودعتها على باب الحجرة ثم أغلقته دونها..

مضت وتركت لها تلك الأشواك التي توخز تفكيرها، جلست على الكنبة، تنظر لصورة أبى، ثم تتجه للمرآة تنزع غطاء شعرها، تسدل خصلاته التي توارى منها بريقه الحريري وأصبحت أصابعها عاجزة عن تخلله، ثم تنظر إلى صدرها عبر فتحة الثوب وتستمر يدها على خصرها، ثم ترتعش يدها وتلتفت ناحية الصوت المباغت:

- ماما، ستتزوجين شخصا غير بابا؟

نظرت إلى أحمد فى خجل، وهى تضيِّق بيدها فتحة الصدر العريض فى الفستان. . وجدت دموعاً متحجرة فى عينيه، ونظرة غاضبة يحملها وجهه الصغير، تنحت من لحظة الضعف مشجبا لأعباء تمحو رغبتها العرجاء أن تنطلق ولو في الحلم، تجثو على ركبتيها، تواجه الخوف المترصد بعين أخي والذي ربما حملها من هودج الشباب إلى حضن الأم المترع بالإيثار، تطمئنه أنه أبدا لن يكون.

اعتدت الذهاب إلى عمل أمى يومياً، زالت عنى رهبة المكان والأشياء؛ فكل شيء جديد له بريق يزول بالوقت، كل من فى الفيلا، يحسن معاملتى، والست رجاء لم تتضرر من وجودى، بل

أنها منحتنى بعض فساتين ميرفت القديمة، وحذاءً قديماً، أدخرته أمى للعيد والمناسبات، كانت ميرفت تدعونى لأشاركها اللعب في الحديقة، كما دعتنى لدخول حجرتها، وليتها لم تفعل، سريرها له غطاء ملون، خزانة مكدسة بالفستاتين، تسريحة بها مرآة كبيرة وعليها علبة كبيرة، تحتوى على كم كبير من أطواق الشعر وعلب برفان، مكتب صغير عليه كتب وحكايات بصور ملونة..

أغمضت عينى وحلمت لدقائق، أنى صاحبة هذه الحجرة، لكنى سريعاً، ينكأ حلمي مهماز الواقع بمجرد النظر إلى المرآة، بل هويت فى حجرتنا، التى يتداجن فيها خمسة أشخاص، كنت أرى أمى ومعاناتها وصبرها؛ فأخجل من نفسى وألقي عن نفسي وشاح الحلم كي أتحرر من خرافة غفوت في ظلها حتي نكأت هوام الأرض أطياف روحي المتعلقة بعرجون السماء.

التحقت بالمدرسة فى هذا العام الدراسى، كم كانت سعادة أمى، بوضعى أنا الأخرى على أول درجات سلم الأمان، كنت كلما أستمع لشرح المعلمة، أنقش حروف الهجاء، محاولة إمساك القلم الرصاص بالطريقة المثلى، أحرص على عدم إهدار صفحات كراستى، لا تترك لى مجالاً للهو كأترابى.

كلمات أمي تحاصرني.. أجراس لا تغادر شحمة أذني، تمطرني دويا حين تتسلق أحلامي الصغيرة أشجار التمرد والشعور بالضألة.. أقف الآن.. أستعيدها.. أرددها في خشوع التائب حين يوخزه الذنب:

- إيمان.. التعليم سلاح لتأمنى غدر الأيام..

ألتقم سندوتشى فى صمت، أتعمد جلوسى بعيدة عنهم، أثناء فترة الفسحة، بل أحكم اللفافة حول سندوتشى، حتى لا يرى أحد ما أتناوله (فول أو فلافل)، أرى المقصف زاخرا بأطعمة مغلفة وسندوتشات وزجاجات مياه غازية، أرى فقاعاتها تدغدغ فم من يشربها، أغض الطرف، عندما تعرض علىّ زميلتى صفاء ارتشاف جرعة من زجاجتها، أشكرها وأتعلل بأنى لا أحبها وإلا كنت أشتريت لنفسى مثلها، القناعة كنز لا يفنى... حكمة أمى أو السياج الذى حرصت على أيداع أفكارنا خلفه، حتى لا يفك لجامها من أيدينا، وتطلق العنان للتمرد الذى حتماً سيؤدى إلى اليأس، من تحقيق رغباتنا، ومجاراة المثل أو محاولة القفز إلى شريحة أعلى، وتصدع أنفسنا فى حائط الفقر.

إخوتى كان مشهودا لهم، بالتفوق فى الدراسة، وبالرغم من أنضمامهم تحت لواء هذه الصفة، لكن شتان ما بينهم من صفات شخصية، كان أحمد طموحاً، واثقاً فى نفسه، لا يخجله ملابسه الرثة أو حذاؤه الذى أعيا عم محمد صاحب محل تصليح الأحذية، فى لـّم أجزائه وترقيعه، ولم يعجز عن الرد على كلمات الرجل المستهزئة:

- يا بنى اشتر حذاءً جديداً، أصابعى هلكت من ترقيعه.

كان لا يترك المجال دون الثأر لنفسه:

- يا عم محمد، إذا اشتريت حذاءً جديداً، لن تجد من تسترزق منه، أنا زبون المحل.

فيضحك الرجل من رده ويشاركه الرأى:

- أنت جدع والله يا أحمد، راجل صحيح.

أما مصطفى ومحمود، كانا على النقيض، يأسرهما الخجل ويتحرجان من الفقر، عندما يتم توزيع هدايا عينية على الأيتام، فى مناسبة العيد، أو عند حلول الشتاء، عندما يتبرع بها، فاعل خير لإدارة المدرسة، كانا يحملان هداياهما فى حزن وتبرم، كمن

يحمل كفنه، ولا يتورعان عن إلقاء الشكوى واللوم على أمى، التى لا تجد غير دموعها، تتسجى بها من شظايا الغضب، فهى لا تلومهما، ولا تدخر فى نفسها وسيلة، لترضيهما، فيزجرهم أحمد:

- هذا هو الاعتراف بالجميل!!

أخذ الجميع ينصت، يطاطىء الرأس، ثم يضيف:

- بعد انتهاء الدراسة، كل واحد منا، سيعمل فى الأجازة، ليدخر مصروف دراسته للعام التالى، بدلاً من الشكوى.

وقد كان، وفق أحمد فى العمل فى مكتبة يمتلكها مدرس بمدرسته، مصطفى فى محل لبيع الأقمشة، محمود فى محل عصير، أما أنا فكنت أذهب مع أمى إلى عملها، لكنى أصبحت أشعر بالحرج، ليس بالطبع من عمل أمى، لكن الطفولة مجال رحب، لا يحاصر فيه الإنسان بتصرفاته، ولا بأقواله، فهو له العذر دائماً، بأنه طفل، لكن الآن وقد اشتد عودى، وانتقلت لطور جديد من عمرى، تحرجت من الانتقال بحرية فى الفيلا، لزمت أمى فى تحركاتها ومنحتها يداً فى مهامها، حتى دخلت علينا ميرفت المطبخ:

- إيمان.. كيف حالك؟ لم أركِ منذ فترة طويلة، في أى صف الآن؟

كانت إجاباتى بأقل الكلمات، عرفت منها أنها فى مدرسة الراهبات، تجيد اللغة الإنجليزية والفرنسية، عضوة فى نادى سموحة الرياضى، تمارس لعبة التنس، هذه المعلومات لم أسعَ لمعرفتها، لكنها اقتحمت عالمى، بالرغم منى.

من جديد، أعيد ترتيب أوراقى مع نفسى، مع حرصى على الخروج بأقل خسائر، أتأمل وضعى فى خريطة الأحياء ومدى اقترابى من الخروج، من قمم الفقر وعنق الزجاجة، أحاور طموحاتى ومدى اتساقها مع الإمكانيات المتاحة، دون انهزام، أو جنوح بعيداً عن الواقع، حسناً يمكننى إجادة اللغة الإنجليزية، حيث هى المادة المقررة فى المنهج الدراسى الحكومى، وتؤجل اللغة الفرنسية للمرحلة الثانوية، فمن الغباء الرضوخ للظروف بل يجب ترويض التنمر فيها.. نعم أجيد التمنطق بالأشياء.. لكني أبدا لن أسقط في تابوت اليأس.

صغيري أرأيت كم أنا قوية الإرادة وكم استطعت أن أرى العالم فقط من نافذة واحدة وهي التي تبتلع اللون الأسود وتؤطر

الأفق الممتد على مرامي البصر بـألوان تبهج وإن كنت جمعتهـا مـن قصاصـات. . لحظـات قليلـة مضـت وأكملـت أعمـدتها بخيـوط إصراري ليكون الغد لي فهو من فعل اليوم، أما الماضي فلـم يكـن لي في تفاصيله يد، ولست معولة على نتائج غرسه. .

obeikandl.com

الفصل الثالث

أصيب أحمد بالحصبة وبات طريح الفراش، محموماً، رأسه يغلى من شدة السخونة، كانت أوامر الطبيب مشددة بضرورة متابعة درجة الحرارة، من وقت لآخر، ووضع كمادات على رأسه بل ودفعه تحت الماء البارد، إن تطلبّ الأمر، وكان يتعذر على أمى تركه فى البيت وذهابها إلى عملها، وفى نفس الوقت خشت من ضياع هذا المصدر الذى يعيل أسرتنا بجانب المعاش الزهيد، فالطبقة الدنيا ليس لها ثمن عند السادة الأغنياء، ومن لا يستطيع سد فرجة الخدمة وتلبية الاحتياج لا حاجة له، كخيل الحكومة فمن يصاب بالوهن ويدركه العجز لا يستحق كسرة الخبز..

لذلك توصلت أمى لحل، لم تكشف عنه بشكل مباشر، ولكني رضخت لطلب مهزوم فى عينها، ذهبت بدلاً منها لمدة أسبوع، وأخذ إخوتى ذهابى لهناك على محمل الهزل والدعابة، خاصة محمود:

- يا حظك، ستصابين بالتخمة من كثرة تناول اللحم.

فى كيس بلاستيك، وضعت بعض ملابسى وأشيائى الخاصة، ثم ذهبت مع أمى إلى الفيلا، أمضت بعض الوقت معى، ثم انصرفت.

جلست فى المطبخ، لم أبرحه، حتى أتانى صوت ميرفت من بعيد:

- إيمان... افتحى الباب.. ألم تسمعى الجرس!

انتفضت من مكانى، فعلا لم أسمع صوت الجرس، بخطوات مترددة، سرت نحو الباب، ترتعش يدى وأنا أفتحه:

- ميرفت هنا؟

ثلاث فتيات متأنقات، يحملن علب هدايا مغلفة بأوراق ملونة، وقبل ان أجيب، وجدت ميرفت خلفى:

- أهلاً...

أفسحت لهن مجالاً للدخول، ووقفت صامتة، أستمع لحوارهن:

- كل سنة وانت طيبة يا ميرفت.

ثم التفتن نحوي متسائلات عن شخصيتي؛ فرمقتني بنظرة ازدراء لم أطقها وهي تخبرهن أنني ابنة زينب الخادمة..

ثم جلسن فى حجرتها، يتعالى ضحكهن، ويتقافزن على دوى الأغاني.

- إيمان تعالى.

نادتنى الست رجاء وهى تحمل أطباقا وشوكا للمائدة، أسرعت أحمل عنها، ثم وضعت مفرشا كبيرا على الطاولة، ووزعنا الأطباق بشكل متجاور ودائرى على طول المائدة.. غمر المكان نور مصابيح الثريا العملاقة التى تتدلى من سقف حجرة الصالون، بها فوتيهات كبيرة ذات إطار ذهبى، منضدة رخامية، وفى الأركان أصيص زرع طبيعى، فازة صينى تبلغ عدة أمتار، تغطى الأرض سجادة ذات وبر كثيفة ناعمة، حتى ليشعر من يسير عليها بأن رجليه تغوصان فى قناطير من القطن..

بعد قليل توافد الضيوف، رجال متأنقون، وسيدات تتحير فى تحديد، مصدر البريق الذى يشع حولهن، من الفساتين أم من الحلى، عم المكان أريج طيب، تزكم الأنوف من تعدد أنواعه، أما تورتة عيد الميلاد كانت من خمسة أدوار مزدانة بالشيكولاتة وورادات

ملونة، تلألأت الشموع وسط غناء الجميع، انتهى الحفل، ليعج المكان بالمخلفات وصدى الضوضاء.

قدمت لى الست رجاء طبقا به جاتوه فشكرتها على استحياء، وجدت طعمه لذيذاً، تراءت لى صورة أمى وإخوتى، لم أعد أستسيغ له طعماً، انتحيت ركناً فى المطبخ، أخذ النوم يغالبنى فلم أستطع الهروب منه، ساد الفيلا سكون، الجميع خلدوا للنوم ونسوا وجودى، لم أشعر إلا بيد تهزنى برفق، وقد غفوت على طاولة المطبخ . . كان صوت سيدة المنزل تعتذر لي وقدمت لى بطانية ومخدة صغيرة، سرت خلفها، وقفت خارج حجرة ميرفت:

- ستنام إيمان على السجادة هنا.

- لا . . . تنام فى أى مكان آخر.

أطرقت إلى الأرض، تحجرت الدموع فى عينى، من جديد أحمل أشيائى، وهى تبحث لى عن مكان، أقصد أرضية في مكان تقبل أن تدثرنى فى حضنها، انتهى المطاف أمام حجرة الصالون، أشارت لى بالدخول، افترشت البطانية ثم أطبقتها على جسدى ودموعى. .

فى صباح اليوم التالى، رغم استيقاظى لم أغادر أغطيتى، حتى جاءنى صوت الست رجاء من الخارج.. ولجت المطبخ، حيث وجدتها تعد الفطور، بعد أن تبادلنا تحية الصباح، طلبت مني أن أستدعي ميرفت لتتناول فطورها.

سرت عبر الردهة، حتى وصلت لحجرتها وطرقت الباب، سمعت صوتها من خلف الباب، يسمح لي بالدخول:

- صباح الخير يا ميرفت.

نهرتنى بشدة:

- ست ميرفت

لم يزد جوابي عن إيماءة برأسي، وبكلمات تعتصر قلبي أبلغتها طلب أمها وابتلعت الصمت بتقطيب جبينى، وخرجت. وجدت طبقاً به فطورى فى المطبخ..

حملت أدوات التنظيف، وتبعتنى توجيهات سيدة المنزل هنا وهناك، أظهرت ميرفت فى تعاملها معى أبشع درجات العجرفة والرغبة المسعورة فى تمزيق كبريائى، وخاصة عندما صرخت فى

وجهى تسألنى عن بلوزة حرير لم تجدها فى خزانة ملابسها، حتى هرعت إلينا أمها:

- كفى صراخاً. . . أنا أرسلتها للتنظيف بالأمس، تمهلى ولا تكونى فجة فى تصرفاتك.

خرجت من هذا الموقف ببعض كلمات المواساة من أمها، غير أن ذلك لم يمنع خروجى ناكئة الجرح الدفين. .

مرت الأيام بخطى متبلدة، أحاول ادعاء الثبات، لكن صبرى بدأ يتقوض فجأة، راح شعورى بالوحدة ينهش أى محاولة لاكتساب بعض الثبات فى تخوم هذه التماثيل الشمعية، حتى رفرف قلبى بين ضلوعى عندما سمعت صوت أمى، ينسل إلى روحي من الردهة تستقبلها الست رجاء. . هرولت إليها باكية، أدفن رأسي في صدرها. .

لأول مرة أطلق العنان لسنواتى الصغيرة، أن تتواثب على جبل صبرى، وأجتر احزاني المسمومة بقلبي .

***

زال الخطر عن أحمد، رجعت لحجرتنا الصغيرة، التى بمثابة قصر بنيانه حب ودفء، لم أجده فى فيلا المعلم شحاته، التى توازى حجرتنا، مساحة المطبخ فيها..

تساءلت أمى عما ألم بى، وقد ساءها ما حدث، ظهر الندم والوجوم على محياها، كانت تهرب بعينيها الدامعتين عنى، وتتلاشى تحديقى فيها، لم أعاتبها، كيف لى ذلك وأنا على يقين بمجريات الأمور ولشدة أدراكى للظروف رجعت الأمور إلى نصابها، وان تركت بصماتها داخلى حتى الآن كأنما هي حفر علي طمي ذاكرتي وجف من وقيد الوجع فأصبح صلدا كالصخر.

***

أصبحت الآن على أعتاب المراهقة، كانت أمى تخشى علىّ، وتمطرنى بالنصائح فى بعض شئونى الخاصة، أجد حرجاً فى الخوض فى تلك الأحاديث النسائية، نعم نبتت زهور قرنفلية فابتهج لها ثوبي الذي اكتمل بها تأنقه، لم يعد جسدي قالبا ممهدا كأسفلت الطرق المرصوفة بل أسبغت الطبيعة عليه تعاريج؛ فأصبح من الصعب أن تمر به الأعين دون أن تتعرض لزواياه والتفكير في وصف تفاصيله المموجة.

صغيري لا تتحرج من كلماتي، أخبرني الطبيب بعد الأشعة أنك ذكر، لذا ربما لن تعرف شعور الأنثى عندما تبدأ مرحلة النضج الجسدي، كأنما تمسك الطبيعة بجسدها كمثال محترف بأنامله الرقيقة يضفي على طمي جسدها البض بعض الإغواء.. يصبح الصدر ناهدا.. ينحت الخصر ويلقي بظلام الليل على مناطق الخصوصية.

أصبح فراغ الحجرة مطبقاً على صدورنا، بما يحجم من ممارسة الحرية الشخصية لكل منا، وبالتالى احتياجنا لمكان أوسع ضرورة ملحة.

الفصل الرابع

انتقلنا إلى شقة من حجرتين متداخلتين وإن كانت كلمة شقة أطلقها مجازاً لوجود عائلة أخرى تشاركنا فى الحمام، أما المطبخ فهو عبارة عن الصالة بين عائلتنا والعائلة الآخرى فهو مشترك أيضاً. .

فى البداية سعدنا بهذا المسكن، ولكن ظهرت مشكلة لم نضعها فى الاعتبار، وهي فظاظة السيدة القاطنة معنا، والألفاظ النابية التى تتدوالها مع بناتها، أصبحنا كمن علق فى شرك، رغم محاولة هذه السيدة التودد لأمى، لكنها كانت معرضة عنها، أدركت بذكائها الفطرى وحس المرأة البسيطة أن تودها بدافع البحث عن عريس لإحدى بناتها، رغم أن إخوتى مازالوا في مراحل مختلفة من الدراسة، أحمد فى الصف الثالث الثانوى، مصطفى أول ثانوى، ومحمود فى الشهادة الاعدادية، لكن موضوع الشهادة قد لا يؤخذ بعين الاعتبار عند البعض، المهم إيقاع الفريسة.

وزاد طمعها عند نجاح أحمد، وقدم مسوغات التحاقه بكلية الهندسة، لأول مرة أسمع دوى زغرودة فى بيتنا، وإن كانت مغموسة بالدموع. . أعدت أمى شربات أحمر ووزعته على الجيران، ابتهاجاً بنجاحه، على أن الست جارتنا أم عبير، هذا اليوم أقسمت على دعوتنا إلى وليمة غداء، وافقت أمى على مضض، صدق حدس أمى، عندما لاحظت تصرفات عبير العابثة مع أحمد، و ضحكتها التى تدعوه لنيل ما يريد. . وعند عودتنا لحجرتنا، عنفته أمى بشدة، لم أر أمى تتميز من الغضب بهذه الدرجة من قبل، فكانت تضربه بقبضة يدها، صارخة وهي تطلب منه ألا يجعل مثل هذه السيدة، ترمى بمستقبله فى نزوة، فهو ليس ملك له وحده. .

حاول تهدئتها بشتى الطرق، دون جدوى، وفى النهاية طلبت منه أن يقسم برحمة أبى، أن يظل فى طريقه لا يحيد عنه قيد أنملة.

تمر الأيام، بين تودد أم عبير، وبتر أمى لأى خيوط قد يسقط أخى فى شراكها، لكن ذلك زاد من الضغط العصبى على أمى، التزم أحمد بوعده واستمر فى تفوقه حتى انتقل للسنة قبل الأخيرة للتخرج، ومع اقتراب امتحاناته أكثر من السهر للاستذكار حتى

الساعات الأولى من اليوم التالى، حتى تكون الحركة هدأت والكل نيام، ويهدأ الضجيج فى الشارع من الباعة الجائلين، ومن ورشة عم سعيد الخراط المجاورة لنا، فانصرف كل منا إلى شأنه، على أن محمود أغفل إحكام الباب الخارجى للحجرة فتسللت عبير فى غفلة من الكل أو بتدبير أمها.. لا أستطيع الجزم بذلك، وجدته يغط فى النوم فجلست إلى جواره، وأخذت تمسد على شعره، وعندما فتح عينيه أحدبت فوق صدره، وتحك ثدييها فى ضلوعه، فرك عينيه.. تيبس في مكانه.. بحروف غنجاء تناديه، صعق على الفور ونهض يقفز من السرير متسائلا كيف وصلت لمكانها هذا؟

جلست بشق على السرير وتضع رجلا فوق الأخرى، وهى تهزها:

- وجدت الباب مفتوحاً...

سرت فى جسده رعدة عنيفة، عبس فى وجهها يشكر اهتمامها، أخذت تخطو بتراخ وهى تشير بيدها مودعة..

أغلق الباب وأخذ يلتقط أنفاسه اللاهثة، شرب كوب ماء، وقد جف ريقه وهو يغالب نفسه، من قطع تلك الزهرة الريانة التى

يطفو فوق أوراقها العبث والمجون، لكنه كان حريصا على البر بقسمه لأمه.

تحرج أحمد من سرد هذه التفاصيل لأمى، لكنى سمعته يقص معاناته هذه لصديقه طارق..

نادانى طارق ليعابثنى، قائلا:

- أهلاً يا إيمى، كيف حال المذاكرة اجتهدي لتلتحقي معنا بالهندسة

رددت بثقة:

- لا.. سألتحق بالإعلام... سأكون مذيعة.

أضاف أحمد:

- ستكون أجمل مذيعة.

ابتسمت بحياء وأسرعت نحو المنزل.

نعم يا صغيري حلمت أن أكون مذيعة بالتليفزيون، ولم لا وملامح وجهي ليس بها شيء خاطيء، ووهبني الله شخصية قوية تحسن التصرف وبديهة حاضرة وقوام متناسق.. لكن..

لا تلح عليّ لأكمل كلماتي.. آه.. تعال معي..

بغضب أفتح ضلفة خزانة ملابسي.. أقصد أحمل الضلفة التي غزاها السوس وتساقطت أسنانها التي تتشبث بمسامير الدولاب بعيدا عن الأرض كي أتمكن من جذب ثيابي الرثة من مكمنها بين هذا الحشد من أقمشة المفروشات وثياب أمي التي عفى عنها الزمن ورغم ذلك تصر على الاحتفاظ بها بمبرر لا يتغير بأنها ربما تصلح في وقت آخر، أتحير لأمرها، وأي وقت هذا يقبل أن يشاركها ما لفظته الأيام الماضية أو ربما هي تحمل بعضا مما يذكرها بشبابها حين دست الأيام في يدها بعض السعادة مع أبي.

خلال هذه المرحلة من حياتي لم يكن لديّ صديقة، بالمعنى الكبير والعميق للصداقة، مجرد زميلات دراسة لم أحاول الكذب في شيء، لكني أخفي بعض التفاصيل العائلية التي لا تهم أي شخص سوى أفراد عائلتي، ومنها الإعانة التي أحصل عليها من الأخصائية الاجتماعية، رغم أن الجميع يعرف ذلك، عندما تأتيني الأخصائية من وقت لآخر، لتستدعيني في مكتبها، لم يحاولن إحراجي ولم أكن أدّعي لنفسي أي وضع يظهرني على غير حقيقتي.

أخيراً حصل أحمد على بكالوريوس الهندسة، وسط فرحتنا وسعادة أمى التى كالعادة لا تخلو من الدموع، تم إعفاؤه من الجيش، لأنه عائل لأسرتنا، وبدأ مشوار البحث عن عمل، ومنذ تخرجه أصبحت تناديه أمى يا (باشمهندس)، وقد وفى المعلم (شحاته) بوعده لأمى، وتوسط لأخى للعمل فى شركة مقاولات.. ومن هنا بدأنا مرحلة جديدة من حياتنا.

obeikandl.com

الفصل الخامس

الشعور بالأمان والاحتواء بين أربعة جدران وبعض الخصوصية لكل فرد منا، إحساس حمدنا الله عليه، شقتنا الجديدة من حجرتين ومنافعهما ولها باب خاص بنا على الرغم من ضآلة قيمة أثاثنا، فكان لإخوتي السرير النحاسي في حجرتهم، ومشجب حائط للملابس، وأنا وأمي نفترش الأرض ونضع عليها مرتبة كبيرة، أما ضلفة البلكونة كان زجاجها مكسوراً، فوضعنا عليها ستارة كريتون.

التحق مصطفى بكلية الطب. . أطلقت أمي البخور في أركان البيت، درءاً لعين الحسود، تكثر من صلواتها، وتضيف نذراً لكل واحد منا، مع كل درجة أعلى يخطوها. .

رغم هذه السعادة التي عمت البيت، قذف أحمد بحجر، في بركة الصبر الراكدة في حضن أمي، فأيقظ دوائر الغضب، عندما طلب منها ترك عملها في بيت المعلم شحاته، فتعالى صوتها:

- بدأت تخجل من عملى يا باشمهندس، وربما تتنكر منى أيضاً.

فهوى يقبل يدها موضحاً:

- أبداً اقسم بالله لكني أريدك أن تستريحى من عناء العمل وشقاء السنين.

نظرت إليه معاتبة:

- وهل انتهت مهمتى، قد تكون أنت وصلت لبر الامان، أما إخوتك فما زالوا فى وسط الطريق.

- سأمنحك يد العون

- وهل مرتبك يكفى لإعالتنا جميعاً، فهو لا يكفيك لوحدك.

- يمكنى البحث عن عمل إضافى.

- مازلت بصحتى، ويدى قوية، لا أحتاج لعكاز، إخوتك مسئوليتى، لا تزيد كلمة بعد كلمتى.

أذكر هذه الليلة، لم يغمض لأمى جفن، أخذت تتمتم...

- لم يحن موعد الراحة بعد.

وتدعو الله أن يمتعها بالصحة ولا تحتاج لمعاونة أى شخص، وبعد سويعات من استغراقنا فى النوم استيقظنا على صراخها، أخذت أربت على صدرها وأناديها حتى فتحت عينيها، ينز من جبينها العرق، وقد ابيض وجهها حتى حاكى وجوه الموتي، وهي تستعيذ بالله من أشباح الأوهام التي تراءت لها في الكابوس.

هرول أحمد وأحضر لها كوب ماء، حاول أن يسقيها فلم تشرب فصب بعضه على وجهها، أسرع إخوتى لاحتوائها، وتهدئة نفسها، أخذت تقص علينا رؤياها: أنها تسير فى صحراء، يغلبها الجوع والعطش، حتى وصلت الى بئر جفت إلا من بعض القطرات، فدست أربع بذور فى الأرض وروتها بهذه القطرات، لتنبت أربع نخلات تحيط بها، أثمرت نخلة منهم، ثم هبت ريح عاتية كادت أن تقتلع باقى النخل، فأخذت تجرى بينها، تدس جذور كل نخلة فى قرار التربة حتى هدأت الريح، لكنها اقتلعت أعضاء جسدها، فصارت كخيال مآتة وهى تذود عن زرعها..

أخذ أحمد من جديد يعتذر لأمى ويجهش بالبكاء . . يطمئنها أن باقي النخل سيورق وستجنى حصاد يدها، لم أكن أعرف مقدار حب أمى لنا وتفانيها فى حمايتنا لهذا الحد . . كم أنت عظيمة يا أمى .

صغيري اين أنت؟ . . دعني أحدد مكانك . . فقط أحتاج أن أتلمس بشرة بطني وأتفقد أنفاسي لأجدك . . ها أنت هنا سابح في بركة الدم الراكد . . لا تخشى السقوط فأنت معلق بحبل يجمعنا في مصير واحد . . نعم أحيانا يحدث أن تخرج المضغة من مكمنها حية ويلتقم الفناء صاحبة المعون . . وأحيانا يخرج الساكن جثة بلا نبض . . لكن يقيني أننا سنجتاز هذا البئر الراكد بسلام وستأتي بجواز مرورك يعلو صراخك . . هكذا الحياة تبدأ بصراخ وكثيرا ما تنتهي أيضا بصراخ .

ترى كيف تراني كأم بعد موقف أمي منا وهذا المسلسل المستمر من الشقاء؟ . . كن صادقا معي . . لا أحب المداهنة . . لماذا تصر على الصمت . . عفوا . . مجبور أنت على الصمت، لكنني لا ألومك؛ فأنا الأخرى يقتلع جذوع لساني الصمت، بل ربما جيناتك المطمورة تحت حد الصمت تنتمي إليّ أنا . . بل أنني

أهرب من وحدتي إليك . . إلى صامت مثلي لن يتذمر أو يجنح للمرواغة .

بمرور الوقت بدأنا فى شراء بعض قطع الأثاث التى نحتاج إليها ، من محل لبيع الأثاث القديم لكنها كانت جديدة لنا وتكفينا .

انتقلت للصف الأول الثانوى ومحمود للصف الثالث ، كل منا يجتهد للسير فى خطوط مستقيمة ، لنصل للهدف المحدد فى أسرع وقت ، وعلى وتيرة واحدة تمر الأيام ، إخوتى يتبادلون ملابسهم من الأكبر إلى الأصغر ، وأصبح المجال أرحب بعد أن تقاضى أحمد راتباً شهرياً ، ومن وقت لآخر يشترى ملابس جديدة . . أما انا فلم تُتَحْ لى هذه الميزة إلا من خلال وسيلة واحدة ، وهى ملابس ميرفت القديمة ، ففى صغرى كنت أفرح بها لاعتقادى أنها جديدة ، وإن كانت ألوانها مخنوقة ، من تعاقب الغسيل عليها أو البقع والصدأ التى لم تبرح الثوب إلا وتحدث فيه فتقاً ، تحاول أمى معالجته ببعض الغرز الخفيفة وتطرزه برسم وردة أو تفاحة .

أما الآن فيصعب ذلك ، وإن كانت الطبيعة أخذت قرارها الحاسم ، قبل أن تعطينى حرية القبول أو الرفض ، كانت هى قصيرة القامة وذات قوام ممتلىء أما أنا طويلة القامة ، قوامى

ممشوق، ربما لم تكن رشاقتى بناء على اختيارى، لكن رب ضارة نافعة.

كانت الست فهيمة (دلالة) تشترى وتبيع أقمشة، وقماش تنجيد للعرائس، كانت تجوب البيوت وتبيع بالتقسيط، كانت أمى تشترى منها فستانا كل فترة.

رجعت أمى من عملها، وكانت على غير عادتها، مقطبة الجبين، كنت أنا وسهير زميلتى نقف فى البلكونة، ونحن نرتشف الشاى وقت الراحة من المذاكرة، فزجرتنى أمى بشدة معللة ثورة غضبها بأننا نبدد الوقت ونحن فى أمس الحاجة إلى الحرص عليه.. بوغت بتصرفها، الذى سبب لى الحرج أمام سهير، التى انصرفت على الفور.. حاولت شرح الموقف، فليس ثمة ما يسوء من التقاط الأنفاس من وقت لآخر، ولكنها أنصتت دون أى تعليق.

بعد فترة وجيزة، دعتنى أمى لتجهيز الغداء معها، شرعت أحضر معها الأطباق والخبز، أضع الطعام على المنضدة، دق جرس الباب، كان أحمد، وعلى عادته ذهب إلى المطبخ ليداعبها، فوجدها صامتة لا تتجاوب مع مزاحه وهزله المعتاد، وعندما سألنى عن السبب أطرقت ولم أرد..

أستيقظ مصطفى من نومه وحضر محمود من الخارج، جلسنا إلى المائدة فى صمت قطعه بكاء أمى الذى وجلت له قلوبنا، وبين دموعنا المنسابة عرفنا السبب، اقترحت الست رجاء على أمى أن أترك المدرسة وأعمل عندها، مما أثار استياء أمى.

وبعد أيام، جاء أحمد ببشرى لأمى ولنا، ففى نقابة المهندسين معرض للسلع المعمرة، ومنها ماكينات تريكو يتم دفع ثمنها على أقساط شهرية، بالاضافة لدورة مجانية لتعليم كيفية استخدامها بل والمساعدة فى تسويق المنتج بنظام الأسر المنتجة.

أخيراً حصلت أمى على حريتها التى سلبت منها منذ سنين، ورغم عدم إلمام أمى بأبسط أوليات القراءة، لكن الطبيعة حبتها بعقل متقد وذهن يعى أدق التفاصيل، ربما الإرادة والحرص على المضى قدماً فى الطريق الذى رسمته لها الحياة، والعبء الذى زاد بالتحاق محمود بكلية التجارة..

أصبحت أمى تبدع فى أشكال البلوفرات التى تنسجها على الماكينة الوحيدة التى تملكها، فكنت أداعبها:

- أنت مصممة أزياء رائعة يا ست زينب.

فكانت تتسع ابتسامتها:

- يا بنت . . سأغتر بنفسي.

أصبحت أرتدى أجمل بلوفرات تتمازج فيها الألوان بدقة وتتشابك الغرز بسريالية تعتمد على الفطرة ومنمنمات الأنوثة، التى لم تتح لها الظروف فرصة لتتجسد على أرض الواقع، أصبح الآن لها مجال رحب لتعانق أطيافها، ومن منا تتيح له ظروف الحياة، أن يعبر عن مكنون ذاته بأبسط الطرق، بل يجب أن يبحث لنفسه عن ثقب، لتنساب خلاله أدواته ليرسم أحلامه التي كانت مفقودة.

كان معرض الأسر المنتجة، يزدان بمشغولات أمى، حتى فاز المعرض بجائزة لتميزه، وأصبح اسم أمى معروفاً لدى أصحاب محلات الملابس الجاهزة، زادت الطلبات فكان الامر الملزم والضرورة الملحة لذلك تتمثل فى زيادة عدد ماكينات التريكو، فاشترت أمى ماكينتين أخريين، وكنت أنا وإخوتى نساعد أمى فى إنجاز المطلوب منها وتحت إشرافها، وكانت تمنحنا نسبة من عائد البيع كمكافأة لنا.

تخرج مصطفى والتحق بالجيش لمدة عام، ثم أصبح طبيباً يعمل في مستشفى الميرى وفى المساء فى مستوصف، ومحمود تعاقب عليه الدور ليلتحق بالجيش ولكنه لم يوفق فى الكشف الطبى لنظره الضعيف، وسجل اسمه فى نقابة التجاريين كعضو غير عامل، وكثف جهده مع أمى فى العمل، فكان يأخذ أجر كغيره ممن يعاونون أمى، و التحقت أنا بكلية الاعلام حلمى الكبير.

صغيري لن أنسى ما حييت فرحة التحاقي بكلية الإعلام.. مازلت أسمع دوي الزغاريد وأنا في حضن أمي الباكية فرحاً وقهقهة محمود حتى احتقن الدم في وجهه وهو يتندر بكلماته من بكاء أمي المتواصل.. نعم الدمع لا يفارقنا ولا ننفك عن الانسياق إلى طقوسه حتي في أسعد لحظات حياتنا.

الفصل السادس

عند دخولي الحرم الجامعي، شعرت برهبة تأخذ كل أطرافي، ها أنا أسير داخل ردهات حلمي، لأول مرة أشعر بدبيب قدمي على الأرض، أفرى وجه الخوف، الذى أمقته.. آراه الآن يتبدد، أصبح صوته الذى تجاسر على ضعفى خافتاً، مسلولاً، يغادر دنياى بلا عودة، فلدى واقع يشع بنوره، لتختفى نداهة الماضى التى حاولت ابتلاع حلمى، أنا الآن على البرزخ الممدود بين الماض والحاضر، أحتضن المستقبل بين يدى فهو ملكى، سأحرص عليه، فلأمى نصيب كبير فيه، كما كنت أنا لى نصيب كبير فى ماضيها.

لكنى هنا أيضاً، وقلبي يتكئ على حائط الذكرى، أشق قميص الحزن. تنطلق خيمة البنفسج، لم أجد فقط ملاذاً لأحلامى، بل حلق قلبي في فراديس شعور جميل يسبر الوجدان، وجعلنى أهيم بروحى، لم يعد لى وزن على الارض، وقد خالفت بذلك كل قوانين الجاذبية، فحتما لو أفسحت الفيزياء، مجالا للعاطفة، بين فروضها ومعطياتها لسجلت حالة استثنائية للخروج عن نطاق الجاذبية، انطلق بين شراييني صهيل جواد يحييني.

هو مدرس مساعد بالكلية، أنيق ومعروف عنه التميز فى كل شئ: الحرص على الالتزام بمواعيده فى المحاضرة، الدبلوماسية فى التعامل سواء فى مستوى الطلبة، أو مستوى الأساتذة المحاضرين، كنت فى السنة الثانية بالكلية، حصلت على تقدير جيد جداً، وأحاول هذا العام الحصول على التقدير الذى يضمن لى التعيين بالكلية، أو على الأقل يضمن وظيفة فى موقع مميز، أرصد حركاته، تمتصها عينى، لأتصفحها فى أروقة الصمت، الذى يزدخر بكم هائل من الذكريات، ممزقة روحى بين صفحاتها، وما أثار حيرتى نظراته، التى تشابكت أهدابها مع نظراتى، فكانا يتناغمان همساً فى فراغ قاعة المحاضرات، حتى همست لى سهير:

- لماذا ينظر تجاهنا طول الوقت؟

هززت رأسى بحركة تعنى عدم المعرفة، هل هو حقاً يقصدنى أنا؟.. إلى حد ما، أحاول ارتداء ملابس متناسقة الألوان، حريصة على ألا تكون مجعدة، ليس بها هنات، أصفف شعرى ببساطة، تاركة خصلات متناثرة على جبهتى، لا أضع من مساحيق التجميل الا أقل القليل.

كنت من رواد مكتبة الكلية بشكل منتظم، سواء لعمل الأبحاث التى يطلبها الأساتذة أو الاستذكار فى الفترات الفاصلة بين محاضرة وأخرى، رغم اختلافى مع صديقاتى فى الطباع، وحرصهن على الثرثرة حول حكايات البنات مع الشباب، الدكتور الذى تزوج طالبة، والوقت الذى يضيع فى الكافتريا هروباً من بعض المحاضرات لأساتذة معروف عنهم التشدد فى التزام الطلبة بالصمت، وعدم الإتيان بأى حركة عابثة أو محاولة أبداء رأى هزلى، وإلا ستكون العاقبة وخيمة، إلا أننا كنا أصدقاء.

جمعنى به أول لقاء، عند إعداد بحث والذى تطلّب الاطلاع على بعض رسائل الدكتوارة، ففى الركن الخاص بالدراسات العليا جلست بشغف أتابع سطور البحث، لمحت طيفاً يقف بجوارى، رفعت عينى لأعلى.. وجدته، عاجلنى بقوله:

- لو سمحت.. هل مازلت تحتاجين هذا المرجع؟

بلعت ريقى وبصوت واهن:

- اتفضل.

أخذ المجلد، جلس قبالتي على المنضدة، عبثاً أحاول التركيز فى كتابة أى معلومة، أمسكت بالقلم، تزوغ عينى بين الدوائر والخطوط، التى أخذت أفكارى تلهو بينها، أشعر بثقل أنفاسى، حتى شعرت أن الجميع حولى ينصت إلى الصوت اللاهث، بين شهيقى وزفيرى، فى الصمت الذى يسود المكتبة.

- هل انتهيت من بحثك؟

من جديد ألملم نظراتى المشدوهة، وأحاول جذب الكلمات من أعماق كيانى المرتجف، مستجدية إرداتى، أن تعبث بأحبالى الصوتية لكى تحرر صوتى من الالتصاق بجدار التوتر:

- مازلت أجد صعوبة فى كتابة توصيات البحث.

بصوت رصين وثقة بالغة، أخذ يسرد لى بعض الأفكار، التى يمكن استنباط بعض الحلول المقترحة من المنهج الاستقرائى لأفكار بعض الفلاسفة والأدباء، وجدت متعة كبيرة فى توجيه دفة الحوار والإنصات لعقلية ذاخرة بالمعلومات ودائمة الاطلاع على فكر المبدعين، وقد وجدت بيننا قاسما مشتركا فى الآراء حول بعض الفلاسفة والشعراء، بل قد وعدنى بأن يعيرنى كتباً لبعض الفلسفة الذين لهم رأى قاطع فى نقاط البحث، رغم سعادتى بهذا الحوار،

والتوحد فى الآراء، إلا أن ذلك كان هو الجانب الوحيد المشترك بيننا، عمه هو عميد الكلية، وعلى حداثة سنه، يقتنى سيارة على أحدث طراز.. كما سمعت، فأنا لست على دراية واسعة بماركة السيارات، كغيرها من الأشياء، التى أجهلها وليست ضمن دائرة اهتمامى.

صغيري هل تراني أم جريئة وهي تكشف سطورا من أيامها، وتستطرد في وصف مشاعر حبها الأول بلا تردد.. ولكني صدقا لا أجد حرجا في شئ، فالأيام تمنحنا بلا اختيارنا جعبة من الخيوط بألوان مختلفة.. نجد في القليل منها الأبيض وهذه السطور بعضا منها.

كثيرا ما تلاحظ أمي فكري الشارد، بحنو تسألني عن حالي، أنظر إليها.. أبتسم.. أقبّل وجنتيها، دون رد.

إنه موعد محاضرته، أحاول الإنصات للشرح، والكتابة فى أوراقى دون النظر إليه، لأنى لو فعلت سأبحر فى عينيه، لن أخرج بمعلومة واحدة.. أجاهد، أركز، أعانى... أخيراً انتهت المحاضرة.

أستعير لأول مرة أجندة المحاضرات من سهير، تتقافز الحروف حين يطرق بالي، فأمنحها منطاد ملون لتخترق حاجز الصمت إليه، تتعجب:

- ألم نحضر المحاضرة معاً!

أصمت، أتجه الى المكتبة، أسترجع وأقارن الكلمات القليلة التى دونتها مع أجندة سهير، رغم رداءة خطها.

- أهناك ما يصعب عليك استيعابه فى المحاضرة؟

أنظر، أجده فى طريقه للجلوس مع بعض زملائه.

- أبداً.. أراجع بعض النقاط التى كتبتها على عجل.

وضع كتاب الفلسفة كما وعدنى، قائلاً:

- تفضلى.

- سأقرأه وأعيده فى أقرب وقت.

- هو هدية للطالبة المجتهدة.

ابتسمت شاكرة، وانصرف.

مداد لا ينضب، ليحرر حروف تتعملق، فلا تتسع لها مساحة الصدر، يسمع حفيف الموج بين أركانه، تنساب من مدامعه جبال الملح، ويرتد له جناحان، على أهداب الجفن المتعب.

قد صدق من قال أن الدنيا صغيرة، خاصة دنياى أنا، حين وقفت أتفحص عقارب ساعة يدي فقد وصلت توا وخشيت التأخير على محاضرة. . جاءني صوت ميرفت وهي تمر بجواري بكلمات مقتضبة تلقي التحية. . مددت يدى إليها، صافحتنى بتعال وهي تسأل عن صديقتها سحر؛ فهي معي بالقسم، وقبل أن أجيبها شردت بنظرها وأخذت تنادى:

- هشام.

أسرعت نحوه، أخذت تتضاحك معه وأنا فى ذهول، أحاول النظر فى كل الاتجاهات، لكن رغماً عنى، طال زمن تحديقى بهما، صافحته مودعة. . اتجهت نحوى من جديد، وهو يبتسم مع إيماءة من رأسه.

دفعني الفضول أن أسألها عن معرفته به رغم أنها بكلية الآداب، بكلمات يخنقها الغرور والاستنكار لسؤالي، أنها تعرف عائلته جميعا وعمه صديق شخصي لأبيها. . ندمت لسخريتها

المفرطة من علامات الدهشة التي اكتست بها ملامح وجهي بل لاحظت أيضا الوهج الذي صبغ أذني باحمرار. . نعم شعرت وكأنما قطرات من السخونة تتساقط فوق كفي وأنا أحاول جاهدة أن أخفي توتري بالعبث بخصلات شعري، أحاول التصدى لكلماتها المستفزة، المتعالية، بهدوء وروية، حتى خلصتنى منها سحر مع باقى شلتها.

لم أتفوه بكلمة إلى سهير، طول طريق عودتنا، مكتفية بتوجيه بصرى، الشارد إليها، وهى تحكى باستفاضة عن حفل زفاف بنت عمها، فستانها، الفرقة الموسيقية، التى أصرت أم العريس على حضورها و. . و. . . .

كل ما كان يدور بخلدى، هو من أي مكان من الجحيم، حضرت ميرفت لتجعل رواسب الماضى، تعكر صفو الحاضر، رغم أنى لم أتوقع نهاية سعيدة لسطور حكايتى مع هشام، لكنى على الأقل كنت أحتفظ بتفاصيل حياتى فى صندوق مغلق ورميت به في هوة سحيقة بعد أن أحكمت وضع ثقل به، من الرفض بما يضمن ألا يطفو لسطح الحاضر فاقدا إمكانية أن تجوس فيها يد

غيرى، لكن من يدرى، فلعل من الأفضل أن تصفعنى يد الواقع، كى أتحرر من رغبتى فى اقتفاء أثر السراب.

صغيري أرأيت لم أهنأ بشيء حتى تلك اللحظات التي اعتقدت أن يد القدر تمنح بعض الفتات للروح الهائمة خلف غلالة الحلم لم تلبث أن تكشف نزق الخط الواصل بينها وبين انعاكس اللحظة في مرآة الواقع. ما أقوله صدق لا مرية فيه.. هوما ستكشف أغواره السطور القادمة.

الفصل السابع

تلتفت أمى إلى أحمد، ومازالت مستمرة فى غسيل بقايا تفل الشاي من الأكواب، حين أكمل جملته المكسوة برنة التردد التي أخذت منها أمي، يطلب منها التعرف على زميلة له بالعمل اسمها دعاء، تساءلت بجزم عن عملها:

- سكرتيرة فى الشركة.

- وما سبب التعارف؟

- عادى... لمجرد التعرف عليها.

- العادي أن تتعرف على أهل كل مهندسي الشركة فى بيوتهم؟

- لا... طبعاً، أنا الذى طلبت منها زيارتنا لتتعرفى بها.

- أول مرة تهتم بواحدة يا باشمهندس، لم هذه الأهمية؟

- مجرد صديقة.

- صديقة... بنات آخر زمن.

وعلى مأدبة العشاء، التى أعدت خصيصاً لها، وتحمل تكلفتها أحمد، حضرت دعاء، كاعب أنيقة، ملابسها ملفتة، جيب جينز قصير، بلوزة شفافة لم تترك تحتها من تفاصيل إلا وكشفت عنها، تترك أزارها بحرية دون قيد، شعرها كستنائى مسترسل به خصل شقراء، تجيد استعمال مساحيق التجميل، يسود الشقة عطرها الآخاذ، ريانة البسمة، خفيفة الروح، تشعرك بأنها فرد من العائلة..

بعد انتهاء العشاء، أسرعت تجمع الأطباق مع أمى، وساعدتنى فى إعداد الشاى، رغم كل ذلك لم تحظ برضا أمى، وقالت لأحمد:

- جميلة، لكنها ليست من عجينتنا.

عندما خلوت إلى أمى سألتها عن سبب قسوة رأيها فى دعاء..

- يا ابنتى، أنها ستحاول تشكيل أخيك ليجارى طبقة أخرى، وهو بالكاد يقف على قدميه، لن تسانده ليقوى، بل ستحاول اقتلاع جذوره، سيكون نباتاً متسلقاً فى تربة، غريبة عنه، سيقع فى النهاية ويصبح لا شىء.

تعجبت من حكمة أمى وبعد نظرها، رغم ذلك لم تنقطع زيارة دعاء لمنزلنا ولم يتغير رأى أمى فيها.

صغيري.. تري هل سأتخذ نفس موقف أمي حين تريد أنت الآخر التعرف على فتاة؟.. هل سأشعر بالغيرة حين تأتي من تأخذك من حضني بل ربما تنصع لرأيها ولا ترضخ لأمري أيا كان، هل ستغضبني كي تنال رضاها وهل سيكون حضنها غاية تسعى إليها بل هل ستستعيض به عن حضني، ربما لم تعد تجد فيه ما يشبع رغباتك، لم تعد تسعي لتحتمي في دفء حضني فأصبح خواء، اختلفت احتياجاتك وبالتالي أولوياتك.. استبدلت احتياجك لأمومتي وتواطأت مع شهوتك للأنثي التي أصبحت ربانة سفينك تتبعها لتشبع رغباتك التي احتلت مشاعرك نحوي.

شعرت أمى أن إخوتى، فى مرحلة البحث عن زوجة أو على الأقل الارتباط عاطفياً بفتاة، ففكرت فى ضرورة شراء أرض يبنى عليها منزل لنا، وبذلك تكون وفرت لكل منهم فرصة ليبنى شقة بمجهوده، مع ارتفاع أسعار الشقق، وطلبت من سمسار البحث عن أرض لا تزيد عن مائة متر مربع بسعر معقول، على أن تدفع جزءاً كبيراً كمقدم والباقى على عدة أقساط.

لعل موقف أمي حين سمحت لأخي باستضافة دعاء، بداية إيجابية لباقي إخوتي لفتح دائرة التعارف، بعد فترة وجيزة طلب مصطفى من أمى أن تذهب معه لخطبة سوسن.. تعجبت أمى وزمت شفتيها وأطلقت زفرة حارة تكاد تلهب وجه الهواء الذي يحيط بها و تساءلت:

- من سوسن وكيف عرفتها؟

- بنت مقيمة فى العمارة التى بها المستوصف.. والدتها كانت مريضة، وتابعت حالتها، حتى شفيت تماماً و...

قاطعته أمى:

- مرضت أنت بحب ابنتها.

طأطأ رأسه، وصمت.

- وهي خريجة أي كلية؟

- الشهادة ليست مقياساً لشئ... معها دبلوم.

- دبلوم... يا دكتور.

- انا أحبها جداً، وأخلاقها ممتازة وجميلة و...

انطلقت من صدر أمي تنهيدة حارة، لم تأبه لقول أخي، فأردفت تتمتم كأنها تهذي:

- طبعاً، كل الصفات الحلوة فيها، حتى ترضى بها وتم تجعل حياتك جحيماً.

ثم عادت تحاول استعادة رباطة جأشها:

- الفرق فى الشهادة سيكون مثاراً للمشاكل بينكما، أنا لا أعترض عليها، اعتراضى على وضع سيرجعك تحت الأرض، أنت وأخوك لم تتعلما شيئاً من الدنيا، يا لسوء حظي في أولادي.

دخل مصطفى البلكونة، وأخذت تفرك يدها غاضبة، ثم تحكم ربط غطاء شعرها قائلة:

- إيمان.. شاي، وقرص أسبرين حالا صداع سيفجر رأسي..

أسرعت نحو المطبخ، أضع براد الشاى على النار، وأقدم لها كوب الماء، مع القرص الذى طلبته، قائلة:

- اهدئى يا أمي

- أهدأ! كل واحد من إخوتك، اختار كارثة ليتزوجها، واحدة فوق مستوانا، والثانية ستدفننا تحت الارض، حب.. حب..

أنصت إلى كلمات أمى، وأتعجب من سخرية الأقدار، أمى بفطرتها وبساطتها، تخشى على مستقبل إخوتى، من الزواج غير المتكافئ، رغم بساطة حالنا، وتوسط مستوى معيشتنا، رغم الشقاء والفقر الذى اعتصرنا، الآن وقد ابتعدنا خطوات عن الفقر، أمى نظرت بعين تغربل مستويات البشر، فكيف يكون وضعى بالمقارنة مع عائلة هشام، ربما طبيعة البشر هى البحث عن مستوى أقل، للشعور بالتميز وممارسة فعل التعالى بكل طقوسه.

ربما أرادت الظروف، أن أشعر بما تعانيه سوسن، التى حرمتها الظروف من الشهادة الجامعية، فأصبحت أقل من أخى، وتقاسي نار الحب والحرمان، فهل يفيء أخي إلى نفسه؟

عندما ذهبت لشئون الطلبة، للحصول على الإعانة الشهرية، وجدت هشام فى الحجرة المجاورة، تعمدت الوقوف أمام مكتب الموظف، دون حراك حتى لا يرانى هشام.. طلب الموظف منى أمنحه دقائق ليرد على التليفون. دخل هشام الحجرة، يطلب من

الموظف المجاور إستيفاء أوراقه، بوضع ختم الكلية.. شعرت بالعرق يتصبب من جبهتى وجمد الدم في عروقي:

- إيمان.

التفتُ نحوه ببطء، وعندما شرعت بالخروج من المأزق، ومغادرة الحجرة:

- إيمان... الشيك.

نادانى الموظف بأعلى صوته.

- شكراً.

أخذت الشيك، وقعت على إيصال الاستلام، هرولت إلى أقرب حائط لأبكى عنده.. سقط من يدي كشكول المحاضرات كانت يدي ترتجف فلم أقدر على حملها.. تحاملت على ضعفي والتقطتها.. لا أدرى سبب بكائى، هل تحرجت لأنه عرف أنى أحصل على إعانة من شئون الطلبة بالكلية، بالتالى تشوهت الصورة الجميلة التى كان يرانى بها، أم لأنى خفت من خسارته للأبد، أو خوفاً من أن يشعر تجاهى بالشفقة، ومذلة الظهور بحقيقة حرصت على إخفائها تحت ملابسي المتأنقة، عندما علمت صلته

بميرفت، خشيت أن يعرف منها حقيقة ظروفى، لكنى لم أجزم بذلك، مجرد تخمين، أما الآن فالموضوع حُسم بكل حذافيره، ومن أين لى الثقة بأنه يبادلنى الحب، فقد يكون شعوره تجاهى مجرد اهتمام بطالبة مجتهدة، وهو على درجة كبيرة من التواضع والود مع كل الناس، فليكن لى موقف رادع مع نفسى الهوجاء، التى قد تدفعنى حثيثاً الى موقف أشد وطأة مما أنا فيه الآن.

امتنعت عن حضور محاضراته لفترة كنت فيها أدعى المرض، أو التبرم من كثرة المحاضرات، مما جعل سهير تجفل من الحالة التى طرأت علىّ، فكانت تقول كلما طلبت أجندة المحاضرات كى أكتب ما ضاع من محاضرات:

- أقسم بالله أنك محسودة.

حتى صادفته، أثناء دخولى من الباب الرئيسى للكلية، كان يترجل من سيارته، بعد أن ركنها فى الموقف الخاص بالأساتذة:

- إيمان.. لم تتغيبين عن المحاضرات؟.

- كنت مريضة، وسأواظب على الحضور إن شاء الله.

لم أمهله لسؤال ثان، استأذنت وأسرعت لحضور محاضرة الفلسفة.

من وقت لآخر كانت ميرفت تتردد على الكلية لتقابل سحر والشلة، كنت أشعر بالرجفة عندما أراها كأنها الشبح الذى أخشاه فى يقظتى أكثر منه فى نومى، عندما ألمحها أتصنع عدم رؤيتها أسرع بالفرار من مكانى.. حاولت التركيز فى الدراسة بكل كيانى، حتى اجتزت السنة قبل الأخيرة بنجاح.

صغيري.. هل مازلت تصغي أم مللت من حكايتي البائسة؟.. أعلم ما قد يدور بخاطرك، ولم لا تبعدي عن نفسك هذا الأمل الضعيف وكلك هذا الخوف من نهاية غير سعيدة مؤكدة؟

نعم أتفق معك في الرأي، عندما يطرق الحب بابنا لا نملك له رفضا يسلبنا المنطق ولا يبقي لنا على حجة للرفض بل يجعلنا ندور في مدارات فلكية لا يدركها باقي سكان المجرة، وحدنا نملك حاسة البصر بعين القلب التي لا تعترف بالمسافات والفروق الاجتماعية لسبب بسيط أن العملة المتداولة هناك هي رقة القلب وشفيف

الروح التي نقايض على سعادتنا بها؛ فهي تحتل أرجاء قلوبنا وزوايا أرواحنا المحلقة في رحلتها لا زاد لها إلا العشق. .

كثيرا ما حاولت أن أرغم قلبي علي اليأس من عشقه، أفرض عليه الترحال من قافلة أنفاسه التي تخب خلف أثرها، لكن بلا جدوي. . أصم أبكم غر أحمق لا يقبل النصح، ولا يرتدع لتجارب كثيرا ما سمعتها على لسان أمي، أو شاهدتها في فيلم عربي فلا يجتمع الفقر والغنى مهما اعتقدنا في منطقية العاطفة؛ فسوط الواقع لا يرحم ولن نجني من الانسياق وراء مشاعرنا إلا الألم.

***

ضاق محمود من العمل على ماكينة التريكو، رغم تقاضيه أجراً، وكانت أمي تسبغ عليه بعضا مما في أوعية عمرها من الصبر بأنها مرحلة مؤقتة، لحين العثور على عمل، لكنه طلب الحصول على دورات متخصصة في الحاسب الآلي، ليعمل كمحاسب، بالاضافة إلى دورات في اللغة الإنجليزية، وعندما رأت أمي إصراره واستعداده بادرت بدفع مصاريف الدورات في الحاسب، ووعدته بدفع دورات اللغة الإنجليزية، عندما يتم الأولى بإتقان. . كان

رأيها أن العمل بالشهادة أفضل، حتى لو كان العائد المادى أقل من عمله على ماكينة التريكو، فالخبرة فى مجال تخصصه لا يعادلها ثمن، ولا يمكن الحصول عليها إلا بالممارسة حتى لو كان مقابلها المادي الحالى ضعيفاً، فالعبرة بالنهاية.

أخيراً استطاع السمسار العثور على قطعة أرض مبنى عليها منزل على كامل مساحته على الطوب الأحمر، لم يتم تشطيبه بعد، فى منطقة المندرة، وفقاً لشروط أمى المالية.. فرحنا بالأرض، كان أحمد يضحك مع أمى قائلاً:

- أصبحنا من الاعيان وأصحاب الملك، يا زينب هانم.

كانت سعادة أمى غامرة، منذ فترة طويلة لم أرها بتلك السعادة، ردت على أحمد:

- أنا اشتريت الأرض، أين شغل الهندسة، يا باشمهندس؟

- تحت أمرك يا ست زينب.

تزداد سعادة أمى وتشعر بأن زرعها أثمر، لم تعد وحدها؛ فالكل يشاركها فى مشوار الحياة، وقد بذل أحمد جهداً كبيراً فى تشطيب المنزل، عاونه على ذلك العمال الذين يعملون معه

بالشركة، وإن استغرق ذلك وقتاً ومالاً، فلم نكن فى عجلة من أمرنا فى شئ.

obeikandl.com

الفصل الثامن

يدق جرس الباب بشكل متلاحق، ويصاحبه طرق على الباب.. كانت أمى تتابع المسلسل اليومى فى التليفزيون، كنت فى الحجرة مع سهير، نتصفح مجلة الأزياء التى اشترتها سهير لتختار موديلاً لفستان، لقطعة قماش حريرية، هدية من عمتها التى جاءت فى أجازتها السنوية، حيث يعمل زوجها فى الكويت، وكانت تخبرنى بأنها سمعت أمها وأباها، يتشاوران فى أمر خطوبتها لابن عمتها، فاقترح الأب وضع الأمر فى طى الكتمان للعام التالى، لحين الانتهاء من دراستها الجامعية، حتى لا تشغلها الخطوبة عن الدراسة، فكانت سعيدة بهذا الخبر، فسوف تتزوج وتسافر لبلد معروف بالثراء.. أثار هذا الدوى، قلقنا، فأسرعنا بفتح الباب، كانت إحد الجارات تستغيث بأمي لتعطيها عنوان المستوصف الذي يعمل به مصطفي لأن حفيدها الرضيع مريض جدا، فطلبت أمي منها الانتظار لتذهب معها، أسرعت أمى بارتداء العباءة السوداء، وأحكمت ربط الطرحة، وهرولت معها إلى المستوصف..

بثقة توجهت مباشرة نحو باب غرفة الكشف فاستوقفتها الممرضة التي تنظم دخول المرضي، وعندما عرفتها بأنها الحاجة أم الطبيب رحبت بها وأفسحت لها المجال لدخول الغرفة معتذرة عن جهلها بشخصها وبعدم وجود الطبيب في الوقت الحالي لأنه عند خطيبته بالدور العلوي؛ فهو معتاد المرور عليها قبل بدء عمله، وأخبرتها بنجاحه وسمعته الطيبة بين المرضي والعاملين بالمستوصف..

وبينما هما في حديثهما مرت بالمصادفة إحدى الطبيبات وسمعت الحوار فأسرعت للترحيب بأمي والكشف على الطفل.

عادت أمي، تموج بالغضب، تسير بخطى بطيئة، تتساند بيدها على الحائط، كأن أصابها الهرم باغتة، أجفل قلبي.. لابد أن يكون هناك شر أصاب الوليد.. شعرت برعشة في أوصالي وأنا أقترب منها حثيثا، وبادرتها بالسؤال:

- هل مات؟

- سيجعلني أموت كمدا

أشعر بدوار. . تجمدت الكلمات على لساني. . أحاول دفع الحروف ليحملها الهواء وتحرر حلقي الذي يطبق على أنفاسي:

- ماذا حدث؟. . لا أفهم شيئا

- الغبي عصاني ولغى وجودي، وخطب سوسن.

- مصطفي!

- تحدتني وخطفته

- ربما تحبه

صرخت وهي تتوعدني إذا قلت كلمة حب مرة أخرى. . أطرقت صامتة، وبعد لحظات يفتح باب الشقة ليدخل مصطفى، ينظر إلىّ بعين متسائلة، فهززت رأسى بالرفض، فى حين تشيح أمى بنظرها بعيداً عنه، قائلاً:

- لماذا لم تنتظرينى يا أمي، أو أرسلت من يبلغنى بوجودك؟

- لم أرض أن أحرمك من العروس.

- لن يحدث شيء رسمى، إلا بموافقتك ورضاك.

- أنا أخر من يعلم

تضع رأسها بين كفيها ثم تضرب بيدها على صدرها.

- بأي صفة إذاً تذهب لبيتها؟

صمت ونظر للأرض ولم يجب

- أتكذب، لم تفعلها في صغرك، معرفتها علمتك الكذب، ومن يدرى أي صفات رذيلة أخرى ستعلمك.

- أحبها يا أمي، أريد أن أدخل البيت من بابه كما أمرنا الدين.

هنا لم تجد أمى مناصا من الرضوخ لطلبه، فقد أجاد الحجة والإقناع.

تمت الخطوبة فى منزل عائلة سوسن، فى جو أسرى، قبل حلول شهر رمضان المبارك بأيام قليلة، قدم لها مصطفى دبلتين وأسورة ذهبية،

وتم الاتفاق على أن يتم الزواج بعد إتمام بناء الشقة. . حاولت أمى جاهدة إخفاء عدم رضاها عن الخطوبة بقدر المستطاع، وخصوصاً عندما دعتنا أم سوسن لتناول الإفطار فى أول يوم رمضان.

صغيري.. حتى الآن أتذكر فانوسي الوحيد الذي اشتراه لي أبي قبل سفره الأخير.. كان من الزجاج الملون وفي أعلاه سلسلة معدنية يحمل بها، وبداخل هذا الإطار الزجاجي شمعة صغيرة مثبتة على قاعدة معدنية أسفله يسهل فتحها لتغير الشمعة حين يأكلها لسان اللهب، أصر على أن يشتريه رغم إلحاح أمي ألا يفعل ونوفر ثمنه لأني مازلت صغيرة وهي تخشى على يدي من الحرق بالشمعة إذا عبثت بقاعدته، كأنه أراد أن يمنحني ذكرى منه.. هكذا قالت لي أمي كلما جاء رمضان وأنصت لها بشغف كأني لم أسمع منها هذه الكلمات الحزينة والتي تجعلها تفتقد دفء البيت في وجوده حين نلتف حول طعام الإفطار.. أما المسكوت عنه فأكيد هي وحدها تفتقد الكثير من المشاعر أو ربما انطفأت جذوته بمرور العمر ونضوب الأمل الذي يذكي داخلها مشاعر الأنثى الظامئة لزوج يمنحها الاحتواء.

***

بعد صلاة العصر، بدأنا الاستعداد للذهاب لبيت سوسن، كانت أمي تتذرع بالحجج، وتختلق أعذاراً لنتأخر في الذهاب إلى آخر وقت، وأمام إلحاح مصطفى، وافقت على مضض.. في

الطريق استوقفنا مصطفي لشراء فاكهة، فنظرت أمي إليه بتعجب..

- أول مرة تشترى فاكهة تكون لناس غريبة.

نظر صامتا..

أخذت أضحك من هذه المناقشة، أول مرة أشعر بغيرة أمى وتخليها عن رداء الحكمة والتروي، شعرت هي بالحرج من ملاحظتها تلك لكنها لم يلبث أن انزلق غضبها لهفوة أخرى حين هددت برجوعها وليضرب الجميع رأسه بعرض الحائط.. حين ايقنت أن الوضع جد حرج فقلت بتوتر:

- نحن نمازحك يا أمي.

بمجرد اقترابنا من باب الشقة، أسرعت سوسن بفتح الباب، قبل أن ندق الجرس، ثم استقبلتنا أمها بحفاوة، وجلسنا فى حجرة الصالون، وعند اقتراب أنطلاق مدفع الافطار بدأ الجميع فى الاقتراب من المائدة، التى كانت مزدحمة بأنواع الأطعمة الشهية.. كانت أمى على مضض تمضغ الطعام يلوكه لسانها كأنما دورة المضغ مرحلة نهائية لا تفضي لمراحل أخري من البلع والهضم، و

بعد الافطار قدمت لها سوسن أنواع شتى من الحلويات والمقبلات، فكانت تجتزئ قطعة منه متعللة بمرض السكر لو المأكولات حلويات، بالضغط لو كان مقبلات، مع العلم أنها لا تشكو من الاثنين. . كان مصطفى ينظر إليها فى صمت ويقطب جبينه وأنا كنت على وشك الانفجار من الضحك، وأنا اقص ما فعلته أمى على احمد ومحمود اللذين رفضا الذهاب معنا وفطرا سويا في منزلنا، وكان أحمد يقول ضاحكاً:

- أنت ممثلة ممتازة يا ست زينب، أحسن من أمينة رزق

- أنا ممثلة يا ولد.

- وهو التمثيل سهل، ده صعب جداً.

كانت أيام هذا الشهر الكريم، متشابهة وتم بالطبع دعوة أهل سوسن للافطار في بيتنا، على غير ما توقعت استقبلت أمى أهل سوسن بترحاب شديد، وأعدت أنواع فخمة من الأكل، أحسنت وفادتهم بشكل كبير، مما أسعد مصطفى، حتى جاء بعد انصرافهم وقبّل يدي أمى شاكراً.

وجدتها جالسة فى البلكونة، قدمت لها طبقا به بعض الفاكهة التى أحضرها والد سوسن، وسألتها عن سبب هذه الحفاوة مع أهل سوسن:

- أخوك يحبها جداً، وهى مسيطرة على كل تفكيره، لم أُرد أن يشعر أنى ضدها، بالتالى سيتحول لصفها، ويعتبرنى أحرمه من حبه وسعادته وأخسره ليصبح ملكاً لها.

كلمات أمى استوقفتنى، فأى ذكاء تمتلكه أو أى حاسة تجعلها تستشعر بها الخطر، فتهادن الجانب القوى، عندما تشعر بضعف حجتها..

صغيري هل يمكن أن تصادفني أم لهشام يكون لها نفسي عقلية أمي المنفتحة على خبايا القلوب وتتذرع بنفس منطقها في الاحتفاظ بحب ابنها وتتنازل عن شرط التكافؤ في النسب والألقاب بين العائلتين، وتسمح لمهن ضئيلة القيمة بأن تجد لنفسها مكانا بين شقوق ذوي المهن الكبيرة..

مع بداية العام الدراسى أعقد العزم على الاجتهاد فى الدروس، للحصول على التقدير الذى يؤهلنى للعمل فى التدريس بالكلية، لكنى وجدت ما أطاح بكل حصونى العتيدة،

فى أول محاضرة له، وجدته يرتدى دبلة ذهبية، لم تفارق عينى يده بل أصبعه الذى يحملها، رغم مصارحتى لنفسى من قبل بهذا الاعتقاد، لكنى صدمت عندما تحقق، فالشك يحمل احتمالين، ربما نعزى أنفسنا بوجود أمل فى نصف الكوب الممتلئ، حتى يتحقق النصف الفارغ، فتكون أيدينا مدلاة فى الهواء.

ولكى يكتمل عذابى، فقد كان هذا اليوم به محاضرة للدكتور مرعى، المخصصة لكى يستعرض كل طالب النقاط الرئيسية لبحثه، أمام زملائه، وجدت نفسى مفعمة بالانكسار، طويت ألمى الثائر فى خزائن صبرى كغيره من الآلام، لكنه يتفرد عنها بأنه يفور، يصطخب، بركان احتضنته بين ضلوعى، فأفسح لنفسه مجالاً بين شرايينى لينصهر ويدب أنياب المعول فى عظمى، كنت أضحك بشكل هيستيرى، كمن يذبح بسكين مثلمة، إذا نظرت لشفتي لوجدت ابتسامة مريضة.

لم أستطع الضغط على أعصابى، ومواصلة باقى المحاضرات، شعرت بعبارة تكاد تزهق روحى، من شدة احتباسها فى حلقى، استأذنت من سهير، التمست لى العذر، عندما رأت

صفرة تعلو وجهى حتى أنها أصرت على اصطحابى للمنزل فأبيت وطلبت منها الاستمرار فى المحاضرة.

لم أجد أحداً فى المنزل، ألقيت بحقيبة يدى وأجندة المحاضرات على كنبة الصالة ورميت نفسي فوق السرير، وقد بلغ الإعياء مني مبلغه، أبكى بدمع غزير، ويتعالى نشيج قلبي ونفسى على حبى الضائع.. شعرت بحرقة فى عينى، نظرت فى المرآة، وجدت حمرة تلهبها، شعرت بإجهاد يشمل جسدى، تتهاوى ذراعى جانبى، شعرت برغبة فى الدخول فى إغفاءة طويلة...

كثيرا ما جلست بملامح لا رتوش فيها، أحتسي وحدتي، أتخفف من ثقل أحمالي، ولأنى لم أستطع أن أخبر أحدا عن معاناتى، فأمى مثلاً ترانى دائماً مثالية، كما تقول دائماً:

- ابنتى عاقلة، ليست مثل غيرها من البنات، لا تعرف حباً ولا كلاماً فارغاً.

أما سهير رغم صداقتنا أجد حرجاً فى الخوض معها في سري، عن شظايا وجعي المتناثرة في مسام روحي، كل شىء يبدأ صغيراً وينتهى كبيراً ما عدا الحزن، وان كان يدمى صاحبه، لكنه ربما يترك ندبة، وبقدر الصدق فى المشاعر يكون عمقها.

ذهبت للمكتبة لعمل بحث، أخذت أبحث عن مرجع لموضوع بحثى (التوجيهات النقدية لشعر شكسبير)، بحثت فى قائمة المراجع وجدت لهشام رسالة يتعرض لبعض هذه النقاط وكان إهداء الرسالة (إلى زوجتى الحبيبة)، تلقيت لطمة جديدة حركت زوبعة استقرت دوائرها فى حشاش قلبي، أخذت نفساً عميقاً، قلبت صفحات وسطور المجلد، أقرأ الفهرس، أعود للإهداء، أضعه على الرف وألملم أوراقى. . .

خرجت من المكتبة، أبحث عن هوة أسقط فيها، حتى تزول عنى تباريح الألم، أحتمي من وهج الحنين داخل أكمام الليل ليذوب في قدح اللارجوع.

لم يتبق لي فى جعبتي من الخطوط العديدة التى امتطيت سطوتها سوى حلم واحد، النجاح بتقدير حرصت عليه، لكنه الآخر أدمى قلبى، لم أحصد بعد عناء دراستى سوى تقدير متوسط، ولا يحمل أى تميز، حتى سميت عامى هذا عام الفشل، وربما تكون الظروف هيأت لى هذا السبب، لكى أطلق العنان لدموعى، الذى يمكن أن يشاطرنى فيه أفراد عائلتى وأصدقائى، وألقى عليه تبعة كل الشرود والسكون والمسكوت عنه، فالوتد

المخبوء في شقائق النعمان لا ينصهر، مهما يغالبه عباب الموج إنما يفري أكباد صبره حين تكفهر المسافة بينه وبين الكائن المتوسد أقبية الحرف، فيرتجف تحت قميص الروح حين تمزقه لحظة البعد، لم لا أنساه هي في جيناتي بعض المازوكية لذا يتعذر على قلبي التنصل من وجعه..

انتقل محمود للعمل بشرم الشيخ بإحدى القرى السياحية، وكان لا يأتي لزيارتنا إلا على فترات متباعدة، مكتفياً بالاتصال بالتليفون. كانت أمي دائمة القلق عليه، ربما ليس لبعد المكان، بقدر الخوف من السائحات، اللاتي يستبحن كل شيء، فهو على حد قولها: خام، لا يعي من الدنيا شيئاً..

شرع أحمد في استكمال المنزل الذي اشتريناه منذ فترة، ولكن أمي أجلت الانتقال، إليه لحين الانتهاء من تركيب عداد للمياه والنور، ولعلها يعز عليها، ترك الجيران الذين كبرنا بينهم وكانوا لنا ولها بمثابة الأهل، مصطفى بدأ في بناء الدور الاول علوى، وعاونه أحمد، بتوفير مستلزمات البناء له، من الشركات التي تتعامل مع شركة المقاولات التي يعمل بها، بأرخص أسعار.

بدون أن يخبرنا بموعد حضوره، حضر محمود فى أجازة، على غير العادة، سعدنا جميعاً بحضوره، وأقامت أمى وليمة لحضوره، وفى صباح اليوم التالى، بعد أن ذهب الجميع لعمله، طلبت أمى تحضير فطور لمحمود، وذهبت هى لتوقظه، فقد اقترب الوقت من الظهر، فوجئت بأنه مستيقظ فى غرفته، يشعل سيجارة ومازالت الأولى في المنفضة، قالت أمي بلهجة من أجاد التخمين:

- كنت أعرف أن الموضوع أكبر من كونه زيارة.

- أنا فى مشكلة كبيرة، لا أدرى لها حلاً.

- أفطر ثم نتكلم.

بعد أن وضعت الفطور على الطاولة فى الصالة، تناول القليل من الأكل، فقلت مداعبة:

- طبعاً يا أستاذ، أكلنا لم يعد يعجبك، بعد أن عرفت الأكل السياحى الفاخر..

- أبدا يا إيمان، لكنى متعب من السفر.

طلبت أمي أن أذهب لشراء مستلزمات البيت وكذلك الذهاب للمحل للتأكيد على الصوف الذى طلبته من الأستاذ

فتحى، صاحب المحل.. ذهبت للسوق واشتريت طعام الغداء، ولم أنس شراء الفروالة التى يحبها محمود.. عدت للبيت، فتحت الباب بالمفتاح الخاص بي.. والتقط سمعي بعضا من حوار أمي ومحمود:

- أكمل كلامك.

- أعجبت بها جداً وهى الأخرى بادلتنى الإعجاب، الذى تحول لحب كبير.. تكلمت مع أخيها وهو يعمل معنا فى القرية، لكنه فاجأني بأنها مقسومة لابن عمها، منذ صغرها.

- كل شيء قسمة ونصيب

نظر إليها فى صمت، وتمتم متحرجاً:

- لابد أن أتزوجها بأى شكل.

يصمت، ثم يذرع الحجرة وهو يفرك يده بالأخرى، يضرب الحائط بيده، قائلاً:

- الموضوع غير ما تظنين.

- تكلم بصراحة

- هى حامل

ارتعشت يدي وسقطت الأكياس واختلطت محتوياها . . شعرت كمن تلقي صدمة كهربائية . . تيبست قدمي ولم أستطع أن أحرك جارحة بجسمي . . أسرعت أمي نحوي فزعة وخلفها محمود الذي أخذ يغمغم كمن يحدث نفسه . . يا لعاري ، حاولت ألا أنظر نحوه كي أجنبه حرج إفشاء سره أمامي .

مازالت كلمات أمي تهدر غضبها في قلبي المرتجف من هول الصدمة ، هذا الموقف خلت أنه لا وجود له إلا في الأفلام والمسلسلات التليفزيونية التي تكون للتسلية والترويح ونحن نحتسي الشاي ، كيف تأمن لفتاة فرطت فيما لا تملك في شرف أبيها وكبريائه .

صغيري أجدني أتساءل : هل هذا هو الحب؟ هل يصل بأصحابه لهذه النهاية بل المأساة؟ . . هل النزوة بدافع الحب ، قد تلغي العقل وتبرر الرغبة في ارتواء الجسد ، من اندفاع الحب؟

ترى هل نحن من نسيء إليه بسطوة الوحش الذي لا يصمد أمامه يد العقل الذي يحثنا على التريث وإعمال المنطق والتفكير في

توابع الأمور بدلا من الاكتفاء بارتشاف لحظة النشوة وأن تركن بعدها للظروف.

لا أريد أن أتخذ موقف الجلاد والقاضي، بل وللأمانة أقف أمام المرآة وأسأل الواقفة أمام نفسها لتكون صريحة وتتحرر من عقلها القابض على أنوثتها ويجعلها ترسف تحت حد التعقل، ها أنا أتحلل من رداء القيم والعادات الموروثة، أافتح بوابة العقل الباطن لأرصد بصدق مشاعري بعيدا عن الرياء والتصنع بلا أدوات تجميل..

ها أنا أسلك الممرات الضيقة والتجاويف الغارقة في الظلام.. نعم يعلق بروحي غبار من الحذر.. هل ستفضحي مكنون نفسك؟؟!!.. تعجبني المغامرة.. لا آبه للتحذير.. أنطلق.. أتخفف من أرديتي.. السؤال يغريني بالمحاولة يؤمي إليّ أن أسير خلفه.. لا ضير من التجربة.. لا شهود على ما سيجرى من مدوالات.. أسير الآن على مذبح الاعتراف.. يشير إليّ أن أجيب فقد أخذ منه الصبر على ترددي الكثير، اقتعدت مقعدا في زاوية من هذا المكان.. لكني لا أعرف اسم المكان.. لا توجد مشكلة.. انسحبت من روحي المترددة.. أقف أمامها أجردها من ورقة التوت.. ناشدتني أن أتمهل.. لم أعرها التفاتا.. نادتني:

"كفي عن عبثك غير العابئ. . " فضرخت بها: "تكلمي كفاك جبنا. . " . . يأتي صوت من بعيد: "كفاكما تراشق بالألفاظ. . " . . لم تستطع الصمود أمام إصراري.

نعم لم أذق مشاعر الحب الدافئة. . لم يحتويني حضن. . لم تمس شفتي شرارة وهج عاشق، لكن اعتصرتني مشاعر عشق من طرف واحد. . أجيد مشاعر الوله، كثيرا ما فتك بصبري الحنين. . الفقد. . هذه هي حصيلة معرفتي بالحب. .

بقسوة يلطمني صوتها الغاضب: "ربما لأنك دميمة. . أو غبية لا تدركين كيف تحبكين الحبل حول الرجل الذي ألهب قلبك عشقا واقتادته أخرى وخب خلف خطى أنوثتها. . " . . أحاول جاهدة أن أتخلص من قسوتها المفرطة دون جدوي. . "كفي أريد الرجوع لجسدي الشمعي. . أريد الاختباء تحت تعاليم أمي وأكتسي بعقلي الراشد فقد أتعبتني الرحلة. . . سأغلق خزانة أسراري تلك، ولن أعود للعبث بمقبض الاعتراف فقد أصابني الخزي، وسأسرع بالخروج من أمام المرآة والعودة إلى نفسي.

***

سافرت أمى مع محمود وأحمد إلى شرم الشيخ، للإسراع فى إتمام الزواج، تفادياً للفضيحة والعار، فى البداية أصر الأب على رفض محمود لخطوبتها لابن عمها، فتمسكت أمى برباطة جأشها، قائلة:

- يا حاج.. رحم الله أخاك.. الظروف تتغير.. لندع لأبنائنا حق الاختيار.. الماضي لنا والحاضر والمستقبل لهم..

- وهل ترضي أن أسحب كلمتي، أخون عهدي لميت!

- بل جدد عهدك لميت، بالإحسان إلى ابنه الحى.

وما هي إلا لحظات وتعللت أمي برغبتها بدخول الحمام فاصطحبتها أم سمر لترشدها للطريق، فأشارت أمي بيدها بما يعني رغبتها في الحديث معها على انفراد، وبخجل المذنب وتأنيبه لنفسه تبدأ بكلمات متفرقة بلا طائل وتحاول جاهدة أن تضمها تحت معنى واضح، تفصد جبينها عرقا، وبقلب الأم فاضت عيناها بالدمع، والنشيج يقبض علي صدرها فيتهدج يرتفع ويهبط وهي توجز كل شيء في عبارة واحدة:

- لابد من الإسراع بالزواج فأمر الله نفذ.

هزت الأم رأسها بمعنى هل ما فهمته صحيحا، فأجابتها أمي بالإيجاب، كمن يحاول جاهدا أن يسترق الرمق الأخير من أنفاسه.. بدا صوتها محشرجا كالمذبوح.. بهمهمات أقرب ما تكون من النواح.. أطلقت آهة ثم أردفت قائلة:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

وحين طال مكوثهما وصمتهما.. أفطن الأب لغياب أمي فنادى على زوجته متسائلا، فعاجلته أمي بالاستئذان على أن تعطيه فرصة للتفكير، وعن تفاؤلها بالموافقة وأن تحظي بالنسب الغالي.

مكثت أمي في الشرم حتى تحقق لها ما أرادت، وتمت الخطوبة، على أن يتم الزواج بعد أشهر قليلة، حرصت أمي على كتمان السر حتى خيل إليّ أحيانا أن ما سمعته هو درب من العبث ووساوس شيطان، وعندما نتساءل عن سبب هذه العجلة كان الرد لا يتغير أنها كأي أم تتمنى الاحتفاء بزواج واحد من أولادها.

رغم أن الاستعداد لإتمام الزواج يتم على قدم وساق، إلا أنها كانت حزينة، صامتة، حتى بوغتت بكلماتي، أردت أن أمنحها مساحة لتلقي فيها موار الغضب الذي ألهب جفنيها.. أخبرها أني

اعرف سبب هذه العجلة. . شعرت أنها ستسقط من فوق مقعدها الخشبي وكأنما شعرت بدوار. . أفردت أصابعها أمام شفتيها المذمومتين تنهاني عن الاستمرار في الحوار، ثم عادت متسائلة، كيف لي بهذه المعرفة. . ثم غابت لحظة، وعادت كمن تذكر شيئا. . تسترجع الأحداث، ثم أصدرت قرارا حازما ألا أكرر حرفا مما قلته حتي بيني وبين نفسي.

تم حفل الزواج وعدنا لبيتنا، بعد أن أمضينا فى ضيافة أهل العروس، أخيراً هدأت نفس أمى، ونامت قريرة العين.

طالعنا التليفزيون بأخبار لم أجد لها منطقاً أو مبرراً، لقد غزت العراق الكويت، أى سبب يمكنه أن يبرر أن يقتل أخ أخاه، أن يستحل دمه، وتدمير كل شيء، إنسانا كان أو حيوانا، قلقت على سهير، فلم تمر شهور على سفرها مع زوجها، أسرعت بالاتصال بأمها، لكنى لم أجد عندها رداً؛ فهى الأخرى تبحث عمن يأتى إليها بخبر ليطمئن قلبها. .

دمار وخراب فى كل شيء، بين عشية وضحاها دُمرت بلد بأكملها، كل الدول العربية والأوروبية، تبعث ندءات متكررة للرئيس العراقى، بالتوقف عن إطلاق النار وفتح مجال للحوار،

وتحريم إراقة الدماء، لكن كل ذلك لم يكن يجدى، أصبحت البلد قطعة من لهب، يعمها السواد حتى البحر ومملكته، أصبح النفط يسيطر على أمواجه، وماتت أسماكه، والطيور المهاجرة رميت جيفة على الشواطئ، وعندما لم يُوجدْ التفاهم تم صدور قرار بالتعبئة العامة، وإعلان حالة الطوارئ فى البلد، تم أستدعاء كل الشباب للجيش، ومنهم إخوتى، حتى محمود، كانت حالة من القلق والتوتر، تسود بين أفراد الشعب نتيجة هذا الإجراء، رغم التضامن واتفاق الرأى فى ضرورة نجدة الأخوة فى الكويت.

obeikandl.com

الفصل التاسع

رجعت سهير بعد فرارها، من الكويت عن طريق الترانزيت لبعض الدول العربية التى فتحت أبوابها للنازحين من الأخوة العرب سواء المصريين العاملين بالكويت أو الكويتيين أنفسهم، تحمل وجها يحكي صمته الشارد عن كلمات مزقها الفزع. . أبحث عن ملامحها القديمة في صورة بذاكرتي لكن ثقوب الواقع مزقت نسيج الأيام الماضية، وتعذر رتقها. . . لاتزال مشدوهة وهي تحكي عن المأساة هناك، الدمار المتربص بكل مكان، القتلى الذين غصت بهم الطرقات، السلب والنهب، وسط ذهول الجميع، كابوس لم ينته، ولايزال فتيله مشتعلاً حتى الآن، في عجل سألتها عن عدم رجوع زوجها وأي شيء يستحق المخاطرة بحياته، أطلقت آهة شعرت وكأنها أحرقت قفصها الصدري وهي تحسب سنوات عمله هناك وهو يتماوت كي يخبز مرار غربته بعرقه الحاصد سنواته بمنجل العمل، لاأزال أرى رأيي على صواب فأي زاد نرجو في حقل جماجم روي بغيم دماء. . .

أتركها وكلى أسى وحزن على كل الأوضاع المتردية، والأحوال السياسية التى تعم المنطقة العربية، فأين نحن من الدين، أعلم أن السياسة بلا عواطف، فأين الضمير وكيف لم يتم حساب ردود الأفعال لهذا التصرف المشين، وكيف سنبرر للأجيال القادمة منطقه، وكيف نكون مثلاً أعلى ونحن نبدع فى امتهان حقوق الإنسان، ونزدرى منهجنا الحنيف. على أن هذا الموقف لم يقاس، توابعه المصريون العاملون بالكويت فقط، بل كل بيت مصري، التحق ابن له أو زوج فى قوات حفظ السلام المتربصة بخطوط الدفاع عن الكويت، بالإضافة إلى تبادل إطلاق النار بين الجهتين، مهزلة فرضت على العرب بيد مُرية.

العيون تتابع الأخبار التى تصلنا من المراسلين، من خط النار، وتقارير تفيد سقوط ضحايا من الطرفين، والجميع يتضرع لله، برفع مقته وغضبه عنا. أمى لم يغمض لها جفن، فى فترة بسيطة ألمت بقدر كبير من المعلومات السياسية والعسكرية التى تنشرها الجرائد، والتقارير الإخبارية من التليفزيون، كنا نتجادل فى بعض التحليلات السياسية للموقف الحالى ونتنبأ باحتمالات لبعض حركات الهجوم من وقت لآخر، انقطعت أخبار المنضمين للقوات

العسكرية، مما أثار القلق فى نفوس الشعب، الغاضب والذى يفتدى الأخوة العرب بفلذة كبده. أخيراً تم التوصل، لاتفاقية لوقف إطلاق النار التى بدأت بهدنة..

تلقينا مكالمة هاتفية من مصطفى، ليطمئنا عليه، لكنه لا يعرف شيئاً، عن أحمد ومحمود، فهو طبيب فى مستشفى على الحدود للجرحى، وطلب من أمى الدعاء له، وطبعاً لم ينس أن يطلب منها إبلاغ حبه لسوسن، وتطمئنها عليه.

وصل زوج سهير بحالة مزرية، خالي الوفاض، مشدوهاً، كالعائد من الموت، لا يقوى على اتخاذ قرار، يأسره الفزع، سأم كل شيء، أصبح صامتا، أشفق عليه، مما يعجز عن وصفه، كأنما يرى أشباحاً رأى العين، يفزعه الأحياء أكثر من الأشباح، والدته تم حجزها فى مستشفى حكومى، تحت الملاحظة، لاحتياجها لعملية قلب مفتوح، كانت دائمة التردد فى إجرائها، فى مستشفى خاص، لكن الحالة الصحية لها الآن بعد الضغط العصبى والنفسى الذى تعرضت له أصبحت حرجة، ولكن المشكلة الجديدة والمترتبة أيضاً على أحداث الخليج، هى تعثر وصول السفينة التى تحمل المستلزمات الطبية لمصر، المستوردة من أوروبا،

كغيرها من السفن المتعثرة فى الوصول لبلدها. لم يتحمل قلبها مزيداً من الانتظار، فقرر أن يتوقف عن استنشاق هواء الدنيا المسموم، ليستظل بنسيم الهدوء، ويقطع كل ما يربطه، بغابات الحقد.

***

بعد العديد من المؤتمرات والاتفاقيات، تم توثيق معاهدة سلام، جثث الشهداء تتوالى فى وصولها، حتى تم تخصيص باب لهذا الغرض فى مطار القاهرة، كشوف أسماء الجرحى، هنا وهناك، السواد يعم المكان، الدموع تتساقط، ليس فقط من أسر العائدين، ولكن من عين كل مصرى يشعر بفقد أم لابنها، أو أخ.

اتصل مصطفى يبلغنا أن نذهب للمستشفى العسكرى، أحمد مصاب ببعض الجروح البسيطة، ووعد بالبحث عن محمود.. لم تسكت أمى عن الصراخ، حتى وجدت أحمد يرقد فى سرير بالمستشفى، أخذت تبحث فى جسمه عن جروح، تحتضنه، وتقبل كل جزء فيه، ودموعها تغسل وجهها، وتتأمله فى زيه العسكرى، متسائلة عن محمود، لكن السؤال ظل بلا جواب فلا أحد يعرف شيئا عن مكانه أو وحدته، ولكن الجميع يبحث عنه..

عاد أحمد بعد أن تماثل للشفاء إلى البيت، لكنه كان على غير عادته، صامتاً، أصابه وجوم يعلوه الانكسار، كانت أمي من وقت لآخر تتصل بسمر للاطمئنان عليها، وكانت تؤكد لها أن محمود بخير، يبلغها السلام، معللة عدم اتصاله بها بأنه يرسل للبيت من زملائه من يبلغها أنه بخير، لكن تلك الحجج لم تكن لتستمر طويلا، فالحزن يسكن قلب أمي ينشر غيمه بصدرها، تفوح منه رائحة الوجع المعجون بالخوف أن يصدق ويكتمل في واقع نرفضه.. وقد تجسد واقع مرير، استشهد محمود

***

مازلت أتذكر بعض المفردات التي لم تطأ أروقة سمعي إلا في هذا اليوم في سؤال من سيتسلم الجثة؟.

أنظر لكل ما يحدث حولى، لم أنطق بكلمة، لم أتفوه بحرف، كأنى أهذى، الجثة، أيعنى أخى محمود؟.. أصبح مجرد جسد بلا روح، أرى صورته، أسمع صوته فى كل ركن فى البيت، أشعر بشرود بلا معالم، خيوط عديدة تسعى خلفى لترغمنى على الاعتراف بحقيقة أرفضها، أهرب منها، أسمع صدى نداهة تردد.. محمود لن يعود، لن أراه مرة أخرى، من يحرر روح أخي

من أسرها، هل باستطاعة أحد أن يقطم رأس الموت وينجو منه أخي؟

صغيري هل تؤلمك ملوحة الوجع التي يسقطها قلبي، أشعر بروح أخي وهي تهاجر وحيدة إلى سكون وظلام. . أشتم رائحة الموت حين يفرض وجوده ووجومه على المكان. . بل أسمع دبيب خطاه يرتجف لها القلب. . تمس تلابيب أرواحنا تسري قشعريرة في أوصالنا. . تري من منا من ستقبض علي كيانه وتتجعد روحه في قبضة يده كقصاصة ورق خمشت كيانها وقذفت بها في سلة الاوراق المنتهية أيامها.

اتصل أحمد بأبى سمر لينعيه الخبر، فوصل فى مساء اليوم التالى مع سمر وأهلها، كانت سمر مجهدة لم تستطع الجلوس لتتلقى العزاء من السيدات فى الشقة، كانت راقدة فى السرير تبكى، وتتحسس السابح في رحمها، تري هل تبكي أخي اشتياقا أم تبكي وليدها ويتمه الذي سبقه إلى الوجود؟. . بجانبها أمها تحتويها بين ذراعيها وتدعوها للصبر، وأمى كانت تجلس مع السيدات صامتة لا تتكلم، لا ترد، تكتفى بتحريك رأسها.

بعد انتهاء أيام العزاء، أصرت أمى على بقاء سمر معنا، حتى يحين موعد وضعها، رغم احتجاج أمها التى رأت أن تحضر إلينا بعد وضعها، لكن أمى كانت حازمة:

- ابن محمود سيولد فى بيت أبيه.

رغم اعتراض أم سمر على طلب أمي فإن أباها دعم موقف أمي على أن تأتي أمها لتكون بجوارها عندما تضع حملها.. كان مبرره وحجته القوية أن أمي ثكلي ولن يهدأ وجع قلبها سوي حفيد يبلغها رسالة السماء إن الله له ما أخذ و له ما أعطى، وعطاءه بلا حدود..

كانت أمى حريصة على أن توفر لسمر سبل الراحة، كل ما تحتاجه، اشترت ملابس للوليد، كانت بيضاء، رغم أن سمر أبلغتها أن الأشعة على الجنين أكدت أنها بنت، إلا أن أمي رفضت الإصغاء لتكهنات الأطباء فالغيب لله وحده.

رزقت سمر ببنت أسمتها أمي، رحمة، كانت عوضاً ورحمة، تمت عملية الوضع في المستشفى الخاص التي يعمل بها أحمد، وأصرت أمي على تحمل كل التكاليف، وعندما طلب أبو سمر المشاركة في المصاريف رفضت أمي بإصرار..

كانت سعادة أمي غامرة رغم أنها كانت مغموسة بالدموع ، من وقت لآخر تدخل الممرضة، لتطمئن على صحة الأم والمولودة، وتطلب من سمر تكرار منح ثديها للصغيرة، لتعتاد على المحاولات الأولى للسعي على جلب طعامها، وإن كانت المحاولات لم تتعدّ اللهاث على ثديها وإفاضة رضابها عليه. وبعد مرور شهرين، اتضحت بعض الملامح المميزة لرحمة، فلها عين أخي وبشرة أمها البيضاء المشوبة بحمرة، وعندما طلبت سمر الذهاب لبيتها وأهلها، أثارت حنق أمي ورغم ذلك حاولت أمي أن تركن للحكمة كعهدها ولا تدع للغضب فرجة ليعبث بهدوئها حين أصرت أخبرت سمر بأن بيتها الحقيقي معنا، وأنها ملزمة بإعالتها ورحمة، ونهرت فكرة عملها، ورغم ذلك لم تسلبها حق زيارة أهلها. .

من خلال الفترة، التي عاشتها سمر معنا، عرفت طبع أمي وإصرارها لذلك لم تندفع معها فى الحوار، واكتفت بالصمت. لم توافق أمي على سفرها بمفردها، فطلبت من أحمد، اصطحابها إلى بيت أهلها.

لم تَختَرْ أمي مصطفى لهذه المهمة لأنها تعرف غيرة سوسن عليه، كان الجميع يشهد لأمي بتفانيها، في تلبية احتياجات سمر، حتى علقت سوسن على ذلك بقولها:

- يا إيمان الحاجة أم لنا جميعا بل إنها تفضل زوجة ابنها على بنتها.

كانت تريد أن توغر قلبي على سمر، لكني أعرف قلبها وأطماعها التي تفتك بنفسها المريضة، فتربصت لها، لأرد لها كيدها في بؤرة قلبها.

obeikandl.com

الفصل العاشر

مازلت أرتدي ثياب الحداد، حزناً على محمود، وحزناً على ضياع حبي، لم أسعَ للبحث عنه، رغم ذلك تبحث عنه عيني في كل الأنحاء، وقلبي يلهث شوقاً إليه، أركن للصمت.. الحرف يؤلم حنجرتي لا يريد اللجوء إلى منفى الحديث عنه، لم يعد هناك ما يناوش قلبي في انتظار الغد، فحتماً هو ليس موجوداً به، أو بمعنى أدق ليس لي مكان بدنياه، أصبح أي تفكير فيه، مجرد سجن للوجع، لانتظار قادم لن يعود، قررت أن أفطم قلبي عن حبي اليائس، أحطم جمودي، أبحث عن ذاتي، دون أن يكون لقلبي دور في توجيه دفة حياتي، أحرر روحي من أسرها، أمتطي متون العقل، ولا أجنح لجنون القلب، ليته مضى وترك قلبي لكنه غادرني وأخذت أنثر فتات العشق في أفواه النوارس كي يعود لي قلبي في موسم الرجوع لكنه ضل الطريق وأبى إلا أن يعيش في عروش أنفاس من هاجر

- الحزن في القلب يا حاجة، والحي أبقى من الميت.

هكذا بدأت أم سوسن كلامها، عندما جاءت لزيارتنا بعد مرور سنة على وفاة محمود، أخذت تسرد الكثير من الحكم والمواعظ عن حكمة الله في استمرار الحياة، وأن الدنيا مستمرة بحلوها ومرها، وأمي تنصت لها، لا ترد إلا بإيماءة من رأسها، فهي تعلم مقصدها والهدف الذي تصبو لتحقيقه، فعاجلتها أمي ونادت مصطفى من الشرفة مع سوسن، قائلة:

- اطلب من الحاج صلاح تحديد موعد لفرحك، واختر مسجداً قريباً منا.

- مسجد.. لكني حلمت بفرح في قاعة، وباند غربي، تورتة خمس أدوار و..

جذب مصطفى يد سوسن، دخلا الشرفة من جديد، لكن ذلك لم يمنعنا من سماع اعتراضها على رأى أمي وبعد برهة، سمعنا صوتها قادماً نحونا:

- يا أمي تأخر الوقت.

لم تجد أمي حلا للموقف إلا بإنهائه.. دخلت أمي حجرتها، وأخذت أحمل أكواب الشاي إلى المطبخ، ثم دلفت إليها، وجدت

دموعاً تكلست بعينيها، لم تلبث إلا وصارت غزيرة.. كأنها أمسكت بقلبي وطحنته بين كفيها.. ومن عساه يلوم قلب الأم الرؤوم، عندما ينتحب لفقد جزء منه، أشعر بشذر دموعها، أتذوق ملوحتها رغم صمتها، أحيانا أشعر أن الشكوى تموت على شفتيها قبل أن تنطق بها، ترفض أن تحط أحمالها على ساعد أيّ منا، مكتفية بأن تمتطى الصبر، تتساند بيدها على حواف الفقد، المدفون في الأعماق، لكنها الآن لا تستطيع الفكاك منها، اختزنت داخلها هموم كل الناس، حتى ثقبت جعبتها وتسربل من مسامه الشكوى، من الأيام السادرة في غيها، رغم ذلك مازال ساعدها قوياً، ليتحمل الأنواء القادمة.

تم عقد القران بالجامع ثم ذهب العروسان الي بيت سوسن ليكملا مراسم الفرح كما تتمني..

مر وقت طويل لم أتصل بسهير، أو أذهب إليها، منذ أن حضرت عزاء محمود، استأذنت أمي في زيارتها وعرفت منها بسفر زوجها إلى الكويت ليجرى اتصالاً بكل الجهات المعنية ليثبت حقه، فيما أهدره الاعتداء من أموال كانت مودعة في البنك الوطنى هناك، أو الفيلا التي كانوا يعيشون فيها، وما آل إليه حال العمل

هناك، حيث أعلنت الحكومة أنه سيتم إعادة كل موظف إلى وظيفته، وإن كان سيتم خفض المرتب كمرحلة انتقالية لحين استقرار الأوضاع وعودة الأمور إلى نصابها، ورغم هدوء الساحة السياسية واستقرار الوضع الأمني هناك، إلا أن ذلك لم يخلصها من شبح الخوف الذي ما فتئ يصطفق بضلوعها حتى الآن، استلت منها الابتسامة، غاب من عينيها بريق الأحلام، لتحل محله غلالة قاتمة، سقطت من الذاكرة مرح الطفولة والشباب لتتمحور كل صور عقلها الباطن في تلك اللحظة المعتمة.

أشفقت عليها، حاولت جاهدة التفكه ببعض المواقف التي تقاسمناها، وهي بدورها حاولت أن تفرش بساط المداعبة وتتجول معي في تخوم الذكريات، وتدمج حكاية في خيط ضحكتي، لنتقاسم نسمات السعادة التي نهفو لنلعق شهدها من على وجه الماضي.

لم أكن أفضل حالاً من سهير، فتلك الساعات التي قضيتها معها أضافت لنفسي الكثير من الراحة التي غفلت عن قدر احتياجي لها، مسكين الإنسان فهو عجينة لينة في يد القدر، يكتسب ويفقد سمات جديدة، بقدر شدة ما يتعرض له من

ضغوط وآلام في رحلته عبر سراديب المجهول، قد نفقد الإيمان بقيم ومعان قد نكون أهدرنا أعواماً من عمرنا ندافع عنها، ولا ننفصل عنها فهي قوى غير منظورة تأسرنا نتفانى في تقديس طقوسها، وبعد معاناة نتبرم من الانتماء إليها، بل نسقط عليها سبب فشلنا، وما آل إليه حالنا من سقوط وترد، وأنا. . . نعم أنا الأخرى، أعزو ألمي إلى إيماني بوجود معنى نقى، يسمو بكل خلجات الإنسان، لا يطبق مبدأ المقايضة بل هو يترفع عن الأنانية، ولا يصدر صوتاً، هو لا يطلب لنفسه أى حق إذا كان في ذلك جور على كرامته، فهو حريص على وجود تلك المسافة الاختيارية، ضماناً لعدم السقوط فى لجة الحيرة من التباين الشديد في تدرج الشرائح المادية والتي بالطبع سترسب ظلالاً، تتماهى في مستويات المعيشة، طقوس الحياة التي لم تكن مواتية لكي نأتلف في نسيج واحد. .

الفصل الحادي عشر

في عيد الأم، وكالعادة في هذا اليوم، يكون لي دور كبير في المطبخ في إعداد الحلويات، وقالب الكيك الذي أتفنن في تزيينه بكافة الفاكهة المتاحة في هذا الفصل من العام، وفى المساء حضر مصطفى ومعه سوسن، وبيدها لفافة كبيرة قدمتها لأمي، وبعد برهة انضمت إلينا دعاء، وقدمت هي الأخرى هدية في علبة صغيرة قطيفة حمراء، أيقنت على الفور أن محتواها حلى ذهبية، وصدق حدسي، كان خاتما له فص أزرق، على أن صفو هذه الأمسية لم يُخل من ضباب المكر، وجدت سوسن في وجود دعاء فرصة خصبة، لتنسج خيوطها العنكبوتية اللزجة، لتحرج دعاء، وتشعرها بعدم وجود أهلية لها أو أي ارتباط يبرر هذه الزيارة، قائلة:

- خاتم جميل، قريبا يارب نرده في مناسبة سعيدة.

- إن شاء الله.

وجدت نفسي أرد على كيدها لدعاء، لأرفع عنها الحرج الذي أحمرت له أذناها، وراحت تعض على شفتيها، وهي تطاطىء رأسها إلى الأرض. وحاولت أمي إزالة بعض التوتر، وعزمت أن تكيل لها بالكيل نفسه فطلبت من دعاء مساعدتي فى عمل الشاي وتقطيع الكيك، ووضعه فى أطباق لتقديمه على صينية كبيرة، وباغتت أمي سوسن بقولها:

- تفضّلي يا سوسن، إن شاء الله نشرب عندك، مغات، قريبا.

بهتت سوسن؛ فردت بصوت متقطع:

- مغات... إن شاء الله... قريبا.

- صحيح.. ليس لأحد منا يدا فى نصيبه أي شيء.

شعرت بأننا فوق فوهة بركان على وشك الانفجار، فهم مصطفى ما ترمى أمي إليه، ومحاولتها لرد بعض الاعتبار لدعاء، فأسرع بتقبيل أمي وانصرف مع زوجته.

غير أن هذا الموقف لم ينته عند هذا الحد، عند عودة أحمد بعد أن ذهب لتوصيل دعاء، طلبت منه أمي وضع حد لعلاقته بدعاء،

فهي لن ترضي أن يتكرر هذا الموقف فقط يتخذ موقف إيجابي أن يرتبط بها بشكل رسمي أو يتركها لترتبط بآخر . .

صمت أحمد، مما أثار استيائي، وثرت في وجهه حين أخبرنا أنه يحجم عن الارتباط بها لأنها خرجت معه دون ارتباط رسمي . . دخلت أمي حجرتها، وأعطته الخاتم الذهبي، قائلة:

- رده إليها.

لم تجد أمي مفراً من الانتقال للمنزل الجديد، كلما بعدنا خطوات عن الشارع تبكى أمي بدمع غزير، عينها شاخصة على المنزل الذي عشنا فيه الأيام الحلوة والمرة، بالأمس كانت جاراتنا طوال اليوم عندنا، في عناق مغموس بالدموع . .

مرت على وجودنا هنا عدة أيام ترتيب المنزل يستغرق، وقتاً ومجهوداً كبيرين، وكم توقعت أمي، لم تُبْدِ لنا سوسن أي مساعدة، ولم تطلبها أمي بالطبع، مرت أيام ونحن وسط هذا الركام من الأثاث المتناثر، خلال هذه الفترة تعرفت أمي على جارة تسكن في المنزل المقابل لنا حيث حضرت الجارة لتقدم التهنئة على السكن الجديد في اليوم الأول لذهابنا، ومعها صينية كبيرة مغطاة، تشتمل على وجبة غداء، معتقدة أننا مجرد سكان نستأجر الدور

الأرضي، لكن أمي أطلعتها على حقيقة الوضع، وتوطدت علاقتها بأمي، حيث وجدت فيها القلب الطيب العطوف، اللسان الذي لا يخلو من ذكر الله، التعقل في نصائحها، بل وأيضاً التشابه في الحالة الاجتماعية، فقد مات زوجها، وكان سائقاً على سيارة أجرة منذ سنوات بعيدة، ترك لها صلاح وسلمى، حينئذ كان عمراهما يتراوحان بين ست وأربع سنوات، أصبح صلاح مهندس كمبيوتر، سلمى مدرسة لغة عربية في مدرسة إعدادية للبنات، وبعد أن أتممنا تجهيز البيت لاستقبال ضيوف، تم دعوة جيراننا الجدد على الغداء، وطبعاً لم تنس أمي دعوة مصطفى وزوجته التي شرعت في مساعدتي على غير العادة، لكنى عرفت السبب، عندما سألتني عن سبب توجيه دعوة الغداء واحتمال أن يكون أكبر من التعارف على الجيران سبب ضمني يخص صلاح.

- سوسن لا يوجد ما يستحق أن تتعبي ذهنك وحواسك باستنتاجه.

أخذت نفساً عميقاً، وتمسكت بقلاع صبري، ثم عرضت عليها أن تجلس مع مصطفى لمشاهدة التليفزيون، فكل الطعام تم تجهيزه منذ الساعات الأولى لهذا اليوم، فالتعب الجسماني أخف

وطأة من مجابهة فضول سوسن وثرثرتها التي لا تتردد في إسباغها على كل المواقف، ولكن للأمانة أشهد لفطنة سوسن، بأنها لفتت نظري إلى احتمال لم تدركه حاستي الأنثوية، التي لم أستوعب إمكانياتها إلا في مجال الدراسة والإلمام بالبحوث والمراجع، هل قصدت أمي ذلك بالفعل؟.. لا أدرى، فلا مجال للبت في تلك النقطة المبهمة إلا بالترقب واستجلاء ما يسفر عنه هذا اللقاء.

حضرت عائلة الحاجة (نادية)، معهم علبة كبيرة من الحلويات تحملها سلمى، كانت ترتدي حجاباً، ملابسها متناسقة الألوان، بيضاء البشرة، لا تضع أي مساحيق.. صلاح طويل القامة، خمري البشرة، شعره أسود مجعد، تم تعرف الجميع بود ولطف، سلمى كانت تجلس بجواري لا تتحدث كثيراً، رغم المجهود المضني الذي بذلته سوسن معها لتسترق ضحكاتها وانتباهها، لكنها لم تزد عن مجرد الابتسام والرد بكلمات قليلة..

تذكرت فيلم (بين القصرين)، بمجرد أن نطقت الحاجة نادية لفظ الحريم، غير أنى لم أجد خصاصة في ذلك، واقترحت على سلمى أن ترفع الحجاب عن رأسها، فقد أغلقت الباب دونهم ففعلت، بعد أن نظرت لأمها التي هزت رأسها بما يعنى الموافقة،

كان شعرها أسود بلون الليل مسترسلاً، طويلاً، كانت عذبة الحديث، مرحة، تحمل أسلوباً رصيناً في حوارها، من الوهلة الأولى يشعر من يحاورها بثقافتها وتدينها لحد كبير، بالإضافة إلى إجادتها للطهي، فقد شرحت لي طرقاً عديدة لعمل عدة أكلات، والحلويات، واستثمرت سوسن إجادتها لذلك بالحصول على وصفات عديدة لعمل المخللات بأنواعها، وبعض الطرق المتداولة في المطاعم لاهتمامها بشراء كتب الطهي، فمن رأيها أن البنت لابد من أن تجيد فنون الطهي والمشغولات اليدوية وكل ما يلزم البيت بالإضافة إلى التعليم والشهادة الجامعية.. شعرت بسعادة أمي بها، كما وضح ذلك أيضاً على وجه سوسن، ومحاولتها جذب انتباه أمي إلى إجادتها هي الأخرى لبعض المهارات، ولكنها أخفقت في ذلك، وحظيت بفشل ذريع.

كانت سلمى محل إعجاب الجميع، و أخيراً وجدت أمي ضالتها المنشودة، زوجة الابن التي تختارها بنفسها، وقد وافق أحمد على ترشيح أمي لها، وترك لها المجال لتستقصى عن بعض التفاصيل بشأن ما إذا كانت مرتبطة، و كل ما يمكنها التوصل إليه عنها، وان كان محتوى الكتاب يتضح من عنوانه، وحرصت أمي

على الاحتفاظ بذلك في طي الكتمان وعدم إلمام سوسن بأي معلومة عن هدفها هذا، متحاشية فضولها وتفاديا لأي تدخل منها، وربما سعيها لتطيح بمسعاها أدراج الرياح.

وفى زيارة لبيت الحاجة نادية، تعرفت أمي إلى ما سر خاطرها، وأدخل على نفسها الرضا والغبطة، مما شجع أمي على التلميح لها بأنها ستأتي فى زيارة أخرى مع أحمد، في يوم الجمعة، أي بعد ثلاثة أيام، وفى هذه الأثناء وجدت طرقاً على الباب، كنت أشرع في غسيل الأطباق المتخلفة من وجبة الغداء، كانت سوسن تحمل في يدها كوب شاي جلست معها في الصالة، وأخبرتني أنها رأت أمي عند الحاجة نادية، وقد مر وقت طويل عندها، كان ردي غير مقنع لها بأنها زيارة عادية.. وقد زممت شفتي بحنق، وذهبت للمطبخ أكمل ما بدأته، دخلت خلفي واستمرت في ثرثرتها عن فرح بنت خالتها، وأمنيتها بأن تحضر فرحى لتشترى فستان سهرة بهذه المناسبة..

شعرت بحديثها كابوساً يجثم على صدري، والاستماتة في محاولة الإيقاع بى لتعرف سبب زيارة أمي لجارتنا، ثم تركتني وأخذت تتلصص من خلف شيش النافذة من شباك جارتنا

الموارب، نظرت خلفها وجدتني أقف مكتوفة اليدين أنظر إليها متأففة من تصرفاتها الفجة، أخذت تدعى أنها تجمع أطراف الستارة لنلتحف بنسائم تعذر وجودها في هذا الوقت من النهار، فاقترحت عليها اللجوء لمياه الصنبور لغسل وجهها، وبعد برهة حضرت أمي رائقة الحال مبتسمة، كمن ظفر بما انتظره وقتاً طويلاً، وبمجرد أن فتحت لها الباب غمزت لها بطرف عيني كي تحذر من التفوه بشيء، فهزت رأسها متسائلة، بدون أن تتكلم، فعاجلتها:

- انتظرتك أنا وسوسن لنحتسى الشاي معاً.

خلعت عنها غطاء شعرها، والعباءة التي ترتديها فوق جلباب البيت، وأدارت المروحة بجانبها.

- أشربا الشاي أنتما.

ثم تناولت زجاجة مياه مثلجة شربت بنهم، ولجت إلى حجرتها، وابتسمت على بابها، وهي تطلب أن أحضر قطع البسكويت وأقدمها لسوسن، وأضافت أنها ستنعم ببعض الراحة ولنمض نحن وقتنا كيفما نشاء.. اكفهر وجه سوسن، أخذت تجتزئ بعض البسكويت، تظاهرت بانشغالها بتجميع فتات

البسكويت المتساقط على ثوبها ثم استأذنت، لتحضر البطاطس المقلية، لأن مصطفى على وشك الحضور، وهو يحب البطاطس ساخنة..

بمجرد خروجها، عرجت إلى أمي، كانت مستلقية على السرير واضعة يديها وراء رأسها كوسادة.. اسعدتني كلمات أمي وهي تدعو لي أن تكتمل فرحتها بأن أجد من يستحق جوهرة مثلي.. أومأت برأسي مبتسمة خجلاً.

obeikandl.com

الفصل الثاني عشر

وجدت أمي أنه من الضروري الإفصاح عن رغبتها لمصطفى كي يحضر معنا لزيارة جارتنا، فلا مفر من معرفة سوسن بذلك، في يوم الخميس اتصلت أمي بمصطفى على هاتفه الخلوي، ليمر عليها عند انتهاء عمله، وبالطبع أخبر سوسن بمجرد اتصال أمي به، ونزلت معه تبعاً لرغبة أمي، وعندما أخبرتهما بالخبر، سعد مصطفى جداً واحتضن أحمد في سعادة غامرة، غير أن سوسن كانت على النقيض، على الفور رتبت الأحداث في ذاكرتها، وبدون قصد قالت:

- هذا كان سبب زيارتك لهم منذ ثلاثة أيام.

لم ترد عليها أمي واكتفت بابتسامة منتصرة، وبعد أن أفردت النقط المهمة، التي سيتم الاتفاق عليها مع أهل العروس، فسيتم عقد القران مباشرة، فعائلتها لا تعترف بفترة خطوبة كمبرر رسمي للارتباط، وحدد أحمد تفاصيل ذلك من مؤخر الصداق والمهر وخلافه، ثم استأذن مصطفى وزوجته، التي رفضت تناول العشاء معنا وادعت اتباعها الرجيم بعد أن فقد جسمها تناسقه،

وقد خمنتُ أن مصطفى ستكون ليلته زاخرة بالمشاحنات، من جراء موقف أمي وتكتمها لأخر وقت.

ذهبنا جميعا لأصهارنا الجدد، استقبلونا بحفاوة وكرم، انقسمنا فريقين، إخوتي مع صلاح في حجرة الصالون، والحريم في الصالة، تحرجت سلمى من تقديم كؤوس المياه الغازية كالمتعارف عليه في هذه المناسبة رغم إلحاح أمها، فحملت أمها الصينية نيابة عنها، وأخذت أمي تتفكه مع أمها عن أيام زمان، ورجعتا بالذاكرة سنين عدة، عندما وضعت كل منهما في نفس الموقف، وبعد برهة نادي صلاح على أمه وأمي وهو على باب الحجرة، ليعلن الاتفاق على كل شيء، وليرفع كل الحضور يديه ليقرأ الفاتحة، لينعم هذا الزواج بالبركة والتوفيق، ثم انطلقت الزغاريد، لتصافحنا السعادة، وينثر عبق الفرحة على قلوبنا، التي لم تتسلل إليها نفحات الغبطة من وقت طويل حتى اعتقدنا أننا افتقدنا مذاقها، ولن تموج به نفوسنا الحزينة عندما تطرق بابنا..

وهنا فاجأت أمي الجميع، عندما فتحت حقيبة يدها، وأخرجت علبة قطيفة زرقاء، ووضعتها في الصينية المحتوية على أكواب الشربات، وطلبت من سلمى فتحها، كان بها خاتم

ذهبي، له ماسة زرقاء. . شكرت سلمى أمي، التي قبلتها بحنان جارف، غير أن سوسن أطلقت من بين شفتيها عود ثقاب واحدا اشتعل مما يمور في كيانها من حقد:

- أهذا خاتم دعاء؟

وكادت تتحول الفرحة، التي كانت تعم المكان إلى كدر، لولا حسن تصرف أمي وسرعة بديهتها، رغم رجفة الكلمات على شفتيها:

- هذا خاتم سلمى خطيبة أحمد، اشتريته مخصوص من شارع فرنسا.

سألت سلمى ببراءة:

- من دعاء؟

- أخته في الرضاعة (هكذا ردت أمي)

شعرت سوسن بحرج موقفها، وخاصة نظرات أمي التي ترشقها وتتوعدها بما لا يحمد عقباه، وإن كانت سلمى لم تقتنع بمبررها، لكنها صمتت على مضض، وأخذنا نتنفس الصعداء، عندما طلب أحمد منا التأهب للانصراف.

احتدم النقاش، والصراخ بصوت عال، شعرت كأن كلمات أمي تبخ صهداً، كانت سوسن عاجزة عن إيجاد سبب منطقي، ليستوعب غضب أمي الجامح، وعبثاً حاول مصطفى تهدئة أمي، محاولاً إيجاد سبب ليمتص ثورة أمي العارمة، أما أنا وأحمد كنا نلوذ بالصمت، فنحن على دراية كافية بطبيعة سوسن ونفسها المريضة..

لم تَعِ سوسن أنها بذلك فتحت على نفسها باباً من أبواب الجحيم، فقد انسل غضب أمي المتراكم وسط كلماتها، فقد أفصحت بشكل واضح خالٍ من التلميحات أو مجرد الإشارة إلى امتعاض أمي من كون سوسنً زوجة لأخي، لم أرَ أمي غاضبة لهذا الحد من قبل، حتى انهارت سوسن باكية، تختلق أعذاراً متتالية، بأن تصرفها بنية سليمة، ووصل الأمر إلى تحذيرها بعدم دخولها بيتنا إذا كررت فعلتها، سواء بقصد أو بدون، فقد طفح الكيل منها. وفي صباح اليوم التالي، نزلت إلينا تكرر اعتذارها لأمي، و قبلت رأسها، تتسربل في حلة من الندم، فلم تجد أمي أمام تصرفها وتشفع أخي لها سوى الصفح عنها.

كل هذه الأحداث، جعلت بداخلي يقيناً على صحة رأى أمي في الحكم على الناس، فقد يأتي الشخص بتصرف بسيط يمكن من الحكم عليه لكنها مقدرة لا تتوافر للكثيرين، رغم تصرفات سوسن إلا أن أمي ما تنفك تدعو لها بأن يمنحها الله القلب المتسامح، وأن يدلها إلى نقطة بيضاء في نفسها المفعمة بالكراهية.. كانت تخشى عليها، وعلى أخي لان الكره دائما يحيق بأصحابه.

من وقت لأخر كانت أمي تتصل بسمر لتطمئن عليها، وعلى رحمة التي بلغت العامين من عمرها، وتتأكد من وصول الحوالة البريدية التي ترسلها لها، ولا تنسى سماع صوت رحمة، وهى تنطق كلمة ماما وتمطرها بقبلات، ولكن هذه المرة طلبت من سمر الحضور لتحضر عقد قران أحمد، فوافقت سمر، والتي لمحت لأمي بأن هناك موضوعاً يريد والدها التحدث فيه وسيحضر معها، طبعاً أبدت أمي سعادتها بحضوره بل دعت أيضاً أم سمر للحضور، لكنها تعللت بمرضها..

وسط هذا الركام من الأحداث والخيوط التي تتشكل في يد الأيام، أشارك الجميع بإيجابية فيما يستجد على أبواب مصيرهم

من أحداث، لكنى مازلت أعتلى شرفة صمتي، لعلى اعتدت أن ألوذ بوحدتي لسبب لم أتنبه له من قبل، لم يهتم أحد بمعرفة سبب معاقرتي للوحدة، كثيراً ما كنت أمي تمتدحني بصفات أضفتها إلى مفرداتى، منها التعقل، الرصانة، حتى نمت في نفسي، وأصبحت أتفيأ ظلال صمتي، اعتدت أن أستمع لشكوى أمي من تصرفات إخوتي العابثة، وشكوى إخوتي من زملاء الدراسة، و تذمر سهير من قسوة أبيها وصبر أمها، من أجل أبنائها، لكنى لم أعلن أبداً استيائي من شيء، ليس لأني لم أصادف ما يؤلمنى أو يغضبني، لكنى لم أجد قلباً يترفق بى، يمنحني مساحة ليهدهد خوفي بين ضلوعه، لم أجد أذناً تسمع شكواى، فالكل أعطى لنفسه حقاً، لم أبحث عن حقي أيضاً فيه، وهو حق البوح، حتى تقلصت المساحة المتاحة لى، بل تبددت، لأنى لم أبحث عنها..

بمرور الوقت تبلدت رغبتي في الكلام، فأنا أحاور فيما يخصني، مع ذاتي التي لم تتبرم من الشكوى إليها، بل كثيراً مما منحتني حرية الصراخ المكبوت، في عالمي الذي لا تتجاوز مساحته جدران جسم هزيل، وروح تسبح عند النجوم.

ذهبت لسهير، لأدعوها لخطوبة أحمد، وعرفت منها أن الحكومة قد استردت لزوجها بعض الحقوق المالية، واشترك مع أخيها في مشروع صغير لبيع المشغولات اليدوية الجلدية، وهي تعمل معهما بالإضافة لبعض المصممين من كلية الفنون الجميلة، وبعض المحترفين في هذا المجال، وعرضت على حقيبة يدها، التي تحمل بعض الرسوم الفرعونية، فسعدت جداً باستقرار أحوالها، لكنى لاحظت شرودها وقلقها، فطلبت منها تفسير ذلك، لكي ترمى عن كاهلها ما تخفيه، فقالت:

- سأجرى عملية في الرحم الأسبوع القادم.
- لماذا؟
- محاولة للإنجاب.
- إن شاء الله خير.
- أحاول جاهدة، تهفو نفسي لأكون أماً يا إيمان..

***

صغيري أتذكر الآن محنتها تلك، وكلماتها المختلطة بدموعها وهي تتكلم عن أنها كالنخل العقيم لا رطب لها ولا جريد، أتحرج

من حزني حين عرفت أن نخلتي أنبتت وسيكون لي رطب جديدة، رغم أن الامر لم يكلفني شيئا بل كان لحظة نشوة تمنيت لو أن السماء لم تهبني إياها، الإنسان هذا المخلوق الذي لا يحمد الله علي نعمه لووضعت بين يديه دون عناء.

***

بعد أن أمضيت معها سويعات، انصرفت وقد وعدتها أن أحضر معها أثناء إجراء العملية، ثم عرجت إلى محطة الرمل، أشاهد الفترينات، حتى وجدت فستاناً يصلح للفرح، لكن المبلغ الموجود معي أقل بكثير من ثمنه المكتوب، فركبت الترام، أطللتُ من النافذة أطالع الإعلانات الموجودة في الشوارع، تذكرت سهير والحب المتبادل مع زوجها ولكن ينقصها الأطفال، صحيح، السعادة والحب نادرا ما يجتمعان.

عند وصولي للمنزل، وجدت الباب الخارجي موصداً، أدارت المفتاح فى الباب، سمعت صوت بكاء صغير، كانت رحمة.. جريت أحتضنها وأقبلها وهي تتساند على الكنبة وتتجه إلى اللعبة الملقاة على الأرض، احتضنت سمر ورحبت بأبيها.. كم سعدت برؤيتها، شعرت بروح محمود تهيم فى أركان البيت،

اصطحبت سمر معي لغرفتي لتأخذ قسطا من الراحة وتبدل فستانها، وتركت أمي تتجاذب أطراف الحديث مع والد سمر، ثم سمعت صوتها يناديني، أسرعت إليها، فهمست لى أن أذهب لشراء طلبات للغذاء، وحملت معي رحمة لشراء حلويات لها، لكنها استمرت في البكاء لعدم اعتيادها علىّ، فعرضت سمر الحضور معنا، فخرجنا معاً.

أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، وعندما سألتها عن الجديد في حياتها غلب عليها الصمت، فأدركت أن هناك جديداً.

obeikandl.com

الفصل الثالث عشر

علمت منها أن ابن عمها يريد الزواج منها، ولذلك حضر والدها ليخبر أمي بذلك، على الرغم من أن زواجها في يوم من الأيام كان أمراً متوقعاً، لكنى شعرت بطلقة نارية اخترقت قلبي، وأشفقت على أمي عندما يصلها الخبر.

شعرت بسعادتي تتبدد بلا رجعة، كأنها تتساقط من كل كياني، تنفذ من مسام جلدي، حتى شعرت بالجفاف ونشيج يلتهم صدري، وغصة في حلقي.

عند عودتنا وجدت أمي ملتاعة، ومقرحة الجفن، أدركت على الفور أن أبا سمر أخبرها بسبب زيارته لنا، وبمجرد دخولنا المنزل هرولت أمي نحونا وحملت رحمة بين يديها، واحتضنتها قائلة:

- مسكينة، يتيمة قبل أن تولد.

جلست سمر على استحياء، وأطرقت إلى الأرض، قائلة:

- يا أمي، سيظل محمود داخلي طول العمر، هو أبو بنتي..

- أنا إنسانة مؤمنة يا سمر ولن أحرم ما حلله الله، مازلت صغيرة ومن حقك العيش بكنف رجل.

أنهى أبو سمر هذا الموضوع بوعده لأمي بعدم حرمانها، من رؤية رحمة وزيارتها، فلا زال بيننا صلة رحم، طلبت منه أيضاً عدم إثارة هذا الموضوع مع أخوتي أو أمام سوسن، على أن تخبرهم أمي في الوقت المناسب، حتى لا تضيع فرحة أحمد، على أن سمر ووالدها رفضا أن يمكثا معنا حتى موعد الفرح، لشعورهم بالحرج أمام كرم أمي، وثقتهما أنهما بلا شك أثارا حزناً دفيناً بداخلها، ربما يخف حدته بسفرهما، وفي هذه الأثناء، قامت الحاجة نادية بزيارتنا هي وأولادها للتعرف على سمر ورحمة، وأحضرت سلمى لعباً كثيرة لرحمة، بالإضافة لدعوتنا على الغداء عندهم على شرف رحمة وأمها.

كل هذه التصرفات العفوية من سلمى كانت تزيد من قدرها وترجح ميزانها في قلب أمي، على الرغم من سعي سوسن وبكل

الطرق للاستحواذ على رضا أمي، فعلى الرغم من محاولة أمي نسيان تصرفاتها، لكن الشروخ لا تلتئم بسهولة.

نزلت أنا وسلمى مع أحمد لشراء فستان الخطوبة، فأصرت سلمى على شراء فستان يصلح للخروج في المناسبات العادية، مزدان ببعض التطريز على الصدر، بدلاً من تكلفة فستان سهرة، سيكون مكانه خزانة الملابس، أعجبت بتفكيرها، ولكنى عن نفسي سأطلب أجمل فستان عروس على الإطلاق، وأشترى لى الفستان الذي عجزت نقودي عن شرائه لى.

رغم بساطة الفستان كانت سلمى، في أوج جمالها، فسعادتها أشرقت وجهها، حتى نثرت فيض من حسنها، لتتلألأ في فتنة تعجز أرقى الموديلات والألوان أن تهبها كل هذا الرونق البديع، تم عقد القران في منزلها، وقدم لها أحمد طاقماً ذهبياً مكوناً من قلادة وأسورة وخاتم، غمرت السعادة قلوبنا جميعاً، ثم أصطحبها بعد الحفل للعشاء في أحد المطاعم، عدنا للمنزل، صعد مصطفى وسوسن شقتهما، خلعت عنى فستان السهرة، وتحررت من الماكياج الذي أتقنت سوسن إسباغه على وجهي، وأسلمت نفسي للنوم وقد سبقتني أمي إليه.

كما وعدت سهير، ذهبت إلى منزلها واصطحبتها مع زوجها، وأمها إلى المركز الطبي، وصعدنا الدرج المفضي إلى حجرتها، ساعدتها في ارتداء المريلة المخصصة للجراحة، واصطحبتها الممرضة إلى حجرة الجراحة، انتظرناها في الخارج، ندعو لها بالتوفيق، وعين أمها شاخصة للسماء، تدعو لها ولمثلها من العاقرات بأن يتم لها مشوار العلاج الذي، بدأ من سنوات ووصل لنهاية المطاف.

عاد أحمد يحمل قصاصة من جريدة قومية، حيث تعلن قناة تليفزيونية، عن وظائف شاغرة، تطلب مذيعات، خريجات أعلام، ومعدات برامج و يجيدن عدة لغات، كانت هذه هي العقبة، فعلى الرغم من إلمامي باللغة الإنجليزية، لكنها لم تكن على المستوى الذي يؤهلني لذلك، لذا قدمت مسوغات التعين كمعدة برامج، وفي نفسي إصرار على أن أكمل الشرط الثاني ليتم تأهيلي لوظيفة مذيعة.

سعدت أمي بهذا الخبر وكذلك أخوتي حتى سوسن، كانت تقول بسعادة:

- عندما سأراك على الشاشة، سأقول لكل الناس، هذه المذيعة الجميلة أخت زوجي، وأكيد سنحضر ضيوفاً في برنامج فيه ممثلون.

- وبرامج أطفال ليظهر فيها أطفالك..

اختفى بريق السعادة من عين سوسن، وشعرت بالخزي حتى شعرت باحمرار وجنتيها، وتحجر الدمع بعينيها، وتركت من يدها كوب العصير الذي قدمته لها، واستأذنت بالانصراف، لتجمع الغسيل من على الحبل، قبل سقوط الطل عليه. أشفقت عليها، وعاتبت أمي على قسوة كلامها، فقالت:

- من حقي أرى حفيداً لي، هناك مواضيع مصيرية لا يجوز المجاملة فيها.

بدأ أحمد في استكمال شقته، وكانت سلمى سعيدة باجتهاده في ذلك، كانت تختار معه لون طلاء الجدران، وتقسيم الأركان حسب التصميم الذي أبدع أحمد في تصميمه، وكانت في زيارتنا بعد جولة بالسوق لشراء مستلزمات المطبخ، وعندما أخبرتها بالوظيفة وسعادتي بها، قالت على مضض:

- إنها وظيفة متعبة، ومجال رحب للاختلاط وعدم التدين.

شعرت بصدمة في رأيها، وأننا سنقترب من التصادم والسقوط فى حلقة مفرغة، فقررت إنهاء الحوار، ولكن ليس بالانسحاب، قائلة:

- الموضوع وجهة نظر، فالأخلاق والتربية السليمة هي الموجه الأول لتصرفات الإنسان، فالإعلاميون والأدباء هم الطبقة التي تحمل على عاتقها نشر الوعي بتفكيرهم المستنير، وأفكارهم التي يستظل بها الرجل البسيط في الشارع.

ثم تركتها لتقص على أمي، كيف وجدت الأسعار، والكم الكبير من الأشياء التي تنقصها، وما رأيها في لون سجاد حجرة الصالون، ليتناسق مع لون الصالون الذي حجزه أحمد في محل الموبيليات.

شعرت بصهد يغلى برأسي، بددت الفرحة التي ملكت عليّ كياني، صدمت من رد فعلها ورأيها، ولكنى صممت ألا أعرض عليها شيئاً يخصني فى هذا الأمر.. أخذت أذرع الحجرة، كنت أعيب على سوسن تفكيرها، والآن اتضح لى أن تفكير سوسن الصبياني أرحم من تفكير سلمى القاهر والحاد.

وبعد إتمام الشقة، تم زفاف أحمد في إطار العائلة، وبرضا سلمى وعائلتها التي تكره المظاهر والضوضاء.

سعدت بعملي كمعدة لبرنامج ثقافي وأسميته (لقاء مع مبدع)، كان فريق العمل بداية من الفنيين والمصور والمخرج رائعاً، كانت مشكلتي مع مقدمة البرنامج، كانت تصلح لبرامج الأزياء واللقاءات الفنية أكثر من كونها محاورة فى برنامج ثقافي، كنضوب خلفيتها الثقافية من بعض المفاهيم الفكرية والتاريخية لبعض المفكرين، لكن الوساطة آفة تزدرى الفرص أمام من يجهل طرق ارتيادها..

عكفت على أعداد أول حلقة للبرنامج، وبجهد مُضنْ جمعت أرشيفاً لأحد رواد الشعر فى العصر العباسي، واخترت ضيفاً للحلقة دكتور في الدراسات التاريخية للشعر، ورغم كتابة الحلقة بشكل واضح ومفصل إلا أنها لم تستطع أجراء الحوار بشكل متقن، بل أصبحت تجرى الحوار بشكل سطحي وتردد بعض الكلمات التى ليس لها أي مدلول ثقافي، فكانت الحلقة فاشلة بكل المقاييس، سواء من وجهه نظر المثقف، أو المشاهد العادي المتابع للحوار باحثا عن بعض المعرفة..

الذي أثار استيائي بخلاف ضياع تعبي في كتابة هذا الملف الوثائقي عن أحد رواد الفكر، أنني كنت ضحية جهلها وفشلها، وطبعاً المخرج، وجد في وضعي كمبتدئة، وبدون وساطة مسرباً له من توجيه اللوم على المذيعة التي تدعمها علاقاتها القوية بالسادة البكوات، وهي كما هو معروف عنها تتقن فن التدلل، الذي يفتح المغاليق الثقال، فأين أنا من هذه الإمكانيات، وقد ارتجت أبوابي على المعرفة والاطلاع، وأحجمت عن كل ما يستلزم التحرر من العقل والمنطق.

باءت أول خطوة لي بالفشل، ولكني كنت على قناعة بأن ما يدعونه من تقصيري وعدم تمكني في مجالي هو محض افتراء، رغم إصرار المخرج على إسقاط كل اللوم على شماعة أخطائي، لكني لم أستطع تمزيق الريح، بمصدات الإصرار والدفاع عن إمكانيتي الهزيلة من قلة التجربة، وعدم وجود سند يقوى ظهري ليتآلف مع متطلباتهم من وسائل التزكية، وما يتيح لي فرصة للمجادلة، فاعتراضي وتذمري لن يكون أكثر من رفيف جناح حمامة تناطح صقور المحسوبية، لكني صمدت وصمتّ، ليس لجبن كلماتي من

التراشق في هشيم ادعائهم، لكن ليس من الحكمة أخذ زورقي فوق إعصار الفشل.

لم أفش هذا السر إلا لسهير، التي وجدت في مواساتها لي أكبر مساندة، فهي قد تعرضت للكثير وها هي الأيام تمنحها بعضا من ثمار صبرها فهي في الشهور الأولى من الحمل، قد أصبحت تلك الآلام مجرد رؤى، لكنها وعيت الدرس وعصمها من التردي في هوة اليأس، رغم كثرة المفردات التي تناولتها في سرد تجربتها، لكن ذاكرتي تشبعت ببعض الكلمات التي مازلت أذكرها:

- أنا.. احترقت حتى انصهرت وأعيد تشكيلي من جديد.

وبالمقارنة بظروفها، فتجربتي أقل وطأة من الانصهار، وإن وصل الأمر بي إلى سحب إعداد البرامج الثقافية، وإعداد البرامج الدينية، كمرحلة لي تحت الاختبار، والحمد لله لم يخنّي الحظ هذه المرة، في الفريق المشارك في الحلقات، فنجحت حلقات البرنامج، وإن كنت مصرة في العودة إلى البيت الذي تم تهجيري منه، بمجرد أن تواتيني الفرصة، فلن أجعل من تهويماتهم مبرراً للتقهقر، بل سأستعيد دفة حياتي بكل إصرار.

على غرار اليوم المعتاد أعود من عملي مجهدة، أتناول طعامي الذي في أغلب الأحوال، يكون سندوتشات بناء على طلبي رغم غضب أمي من طريقتي الغذائية غير الصحية، إلا أنها في النهاية تنصاع لطلبي على مضض، وأحيانا أخرى تتعمد صنع وجبة لا تصلح لعمل السندوتشات، مثل الحساء وأرز، أو الملوخية وغيره من الطبخات التي تحتاج إلى الجلوس لتناولها بكلتا اليدين، بدلا من تناول السندوتش بيد والأخرى تمسك بقلم أو كتاب لتحضير الحلقات، فعلى الرغم من حصاري في البرامج الدينية، مازلت أعد حلقات للبرامج الثقافية، بما يجد على الساحة من أحداث أدبية وقضايا فكرية، ودراسات نقدية، ومناظرات في الآراء بين المفكرين بدافع الإصرار على مواصلة المجال الذي أجد نفسي فيه، فقد فكرت في عرض هذه الدراسات على بعض المخرجين، أو تقديمها للمجلات الأدبية المتخصصة، وإن أخفقت في كل الاحتمالات سأقوم بعمل كتاب على نفقتي الخاصة، يضم كل ما أنهكت نفسي في حصره، على أن يكون ذلك بعد عرضه على أديب متخصص، أو أكاديمي يشمله بنظرة تحليلية، لم يعد لدى وقت لأهتم بمشاكل أمي مع عبث سوسن، وإصرارها على التذاكي فى شؤون أمي، أو المشاكل التي بدأت تنجم من تزمت

سلمى فى بعض الأمور الحياتية، بالإضافة لظهور جبهة أخرى تتمثل في تصادم مراوغة سوسن مع عجرفة سلمى، فالساحة زخمة بالأحداث وأنا أسمع للأخبار بأذن صماء فكل منهن تمارس حياتها، وحرى بى التمسك بحياتي، وعدم ترك زمام الأمور تنفلت من يدي، فقد عشت سنوات طويلة، أنداح لإيثار الغير، والآن أحاول الخروج من عنق الزجاجة بعد أن غمرني التمزق، أستجمع خيوطي يتسلل الأمل في خطوط مستقيمة محددة المعالم، أوشك على اقتناص حالة السعادة، غير أنه عند عودتي هذا اليوم، لم أمارس طقوسي المعتادة، فى الجلوس فى حجرتي والكتابة، فطلبت أمي انتظار ضيوف، مع حلول المساء.

الفصل الرابع عشر

كشظايا الثلج على رأسي العابث بالحروف، ويعيد تشكيل الكلمات قالت أمي أن صلاح يريد خطبتي.. ألجمت المفاجأة لساني، أعرف عنه كما يعرف عنه الجميع كرم أخلاقه، لكنى لم أفكر فيه يوماً كزوج.

وقبل حضورهم بساعات، تم عقد اجتماع عائلي مع أمي وأخوتي لمعرفة رأيى، وأخبرت الجميع بعدم مقدرتي على الحكم على الموقف، للمفاجأة التي ألمت بى، وإن اتفق الجميع على أنه الزوج الذي يتمنوه لي وأن فترة الخطوبة كفيلة للتقريب بيننا..

بشفاة مقلوبة انتهى الحوار، ودخلت المطبخ لأعد لنفسي فنجان قهوةً، لكي أتغلب على حالة فقدان الاتزان، والتشابك في كل الخيوط، التي أصبحت أطرافها ملفوفة حول عنقي، ثم نهرتني أمي كي أستعد، بكىّ البلوزة الحرير المشجرة والجيب الطويل، وتحضير بعض الكؤوس، صينية كبيرة، وطلبت من أحمد شراء عدد من قطع الجاتوه، وزجاجة مياه غازية كبيرة، وقامت

هي بترتيب الفوتيهات فى حجرة الصالون، ووضع الفازة الصيني على المنضدة الرخام بجوار المنفضة.

وبعد صلاة العشاء بقليل.. ظللت مع سوسن في الصالة، كانت سلمى تدخل تجلس معهم في الصالون ثم تأتى لنا بالأخبار، وعندما تم الاتفاق على الخطوبة وتفاصيل الزواج، هرولت إلينا تقبلني.

بعد انصراف الضيوف، تجاذبت مع أختى وأمي أطراف الحديث فصدمتني مفاجأة أخرى تم الاتفاق على عقد القران بدلا من الخطوبة كما هو الحال مع سلمى، فأثار هذا استيائي وغضبى واعترضت على أحمد الذي وافق على ذلك دون الرجوع إلى، ولأول مرة ثار في وجهي غاضباً، بل وأخذ يعنفني بيده فوق كتفي، حتى أن أمي وقفت حائلاً بينه وبيني حتى لا يتطور الموقف، وبالطبع اعترضت سلمى على موقفي، ورأت أن في ذلك إهانة لعائلتها ولشخص أخيها، والذي تتمنى كل البنات مجرد إشارة منه، على حد تعبيرها، وعندما استشعرت أمي ضعف موقفي الرافض لوضع ارتضيناه نحن لسلمى، قالت:

- يا سلمى، هي لا ترفض الارتباط بصلاح، لكنها المفاجأة فقط..

كانت أمي تجادل سلمى بأعذار هي على يقين بعدم صحتها ومنطقيتها، وطبعا تنظر لي بطرف عينيها التي تتوعدني بحساب عسير عندما ينفض الجمع، لكنى لم أحفل بهذا العقاب المنتظر بقدر حرصي على التحرر، سجن جديد يلوح لي من بعيد، وأنا منساقة إليه، كشاه تكبل إلى المذبح.. لا أعرف سبباً حقيقياً لحالة الهلع التي انتباتنى لوجود ورقة، تحصر أحلامي وتحركاتي في يد رجل ورقة تعطيه حق تملك جسد يتشرب رحيقه وأنفاسه وقتما شاء، رغم أنى حكمت قلبي من قبل، لم ينصفني، فالمنطق يدعو إلى البحث عن عضو آخر يتحكم في كل الأعضاء، فحتما لأنه حكيم ويملك القدرة على السيادة بدليل ولاء باقي التوابع للمؤشرات التي يمليها عليهم، ومن هذا المنطق تجردت من وحدتي، ارتضيت وجود شخص يشاركني الحياة، والتي كانت أشبه بمجهول لا أحمل هوية لكي ألجه غير ورقة ملكية معترف بها، في زمن يأنف تجارة الرق.

ارتديت دبلة في أصبعي، وبدأت أفكر في مستلزمات بناء منزل لي، وإن كنت سأنتقل للعيش مع الحاجة نادية، لكن التجديد شمل كل شيء في أركان الشقة، أصبح العبء ثقيلاً، إصرارى على الاستمرار في إعداد البرامج الثقافية كما هو، لم يلن ولكنى بالكاد أعد حلقات البرنامج المكلفة به، فاحتملت ضيق الوقت بتأفف، ولكنى كنت أعزى نفسي بأنها مسألة وقت وعندما سيتم زفافي سأستجمع خيوط كل شيء من جديد، وعندما ذهبت لشراء فستاني الأبيض، لم أقف أمام الفترينات، باحثة عن أجمل فستان على الإطلاق، بل اكتفيت باستئجار أول فستان وجدته، يناسب مقاسي في الأتيليه.

يوم زفافي، كنت في حالة صمت مطبق، لفت نظر عاملة التجميل التي كنت تضع اللمسات الأخيرة لمكياجي في مركز التجميل، لم اهتم بانتقاء الإكسسوار، أو طول الطرحة التي تضعها على رأسي فالكل سيان والنتيجة واحدة، حتى سهير لم تنجح في مسح الحزن الدفين من نفسي، فكانت تعبث مع العاملة قائلة:

- هل رأيت عروساً أجمل منها؟

- لا.. لكنى لم أر عروساً في حزنها.

حاولت سماع النصيحة بالفرح فهي ليلة العمر التي لن تتكرر، رسمت السعادة التي أشاعت في قلب أمي الغبطة وإخوتي حولي يلتقطون الصور التذكارية، فقليل من الابتسام قد يخفى الكثير من الخوف من زواج بلا حب.

مرت أيام الزواج الأولى بمثالية فكل طرف يعرف ما له وما عليه من حقوق، وبانتهاء الأجازة رجعت لعملي، وان كانت عودتي بمحاذير واشتراطات، ولكن هذا متوقع ولم يضايقني، ولم أجد فيه ما يخالف طبيعتي الحذرة في التعامل وعدم الخلط بين العمل والعلاقات الشخصية.

عندما انتهيت من دورة اللغة الانجليزية، أصبح من حقي التقدم بطلب للعمل كمذيعة، قدمت الطلب وتركت الإجراءات تأخذ وقتها.

فى يوم الأجازة، كنت أقوم بواجباتي المنزلية من تنظيف وخلافه، من إعداد الأطباق المفضلة لزوجي والحاجة نادية، التي كانت تتولى الطهي في أكثر الأوقات، في أيام العمل، بدون شكوى.

عرفت من أمي أن سلمى في الشهر الأول للحمل، وقد سعدنا جميعاً بهذا الخبر، غير أن ذلك جعل سوسن في موقف محرج لأنها متزوجة منذ فترة طويلة، ولم تنجب حتى الآن، ولذلك طلبت أمي بشكل مباشر من مصطفى عرض زوجته على الطبيب، وقد وعد أمي بذلك مرات عديدة، وكلما سألته عن هذا الموضوع تذرع بالحجج حتى ضاقت أمي به ذرْعاً..

وفى صباح اليوم التالي، نادت أمي على سوسن لتذهب معها لقضاء بعض شئونها، وفي الطريق عرفت سوسن برغبة أمي بعرض حالتها على الدكتورة في العيادة بالشارع الخلفي لمنزلنا فرفضت بإصرار، وأخذت تبكى وتركت أمي في الشارع، وذهبت غاضبة لبيت أهلها.

وفى المساء حضرت أمها إلى أمي تشكو من تصرفها بحجة أن موضوع الإنجاب يخص ابنتها وزوجها فقط، وبالطبع لم تأبه أمي إلى كلامها غير المنطقي، وصرحت لها أمي بأنها على يقين أن هناك ما تخفيه ولا تريد منا معرفته، ونزل أحمد على صوتهما العالي وحاول إنهاء هذا الاصطدام وإرجاء مناقشة الموضوع لحين عودة مصطفى من عمله فهو صاحب المشكلة، وقد كان.

اتصلت سوسن بأخي، وقصت عليه تصرف أمي، الذي اعتبرته إهانة في حقها والذي بناء عليه قررت البقاء في بيت أهلها لحين البت في مشكلتها، وعند حضوره ماج في وجه أمي بغضب وعنفها لأنها جرحت زوجته، وتدخلت في حياتهما الخاصة، لكن أمي صمتت وعندما هدأت ثورته فاجأته أمي بقولها:

- أنها عاقر، غيّر العتبة.

- أطلقها؟

- مثنى وثلاث.

- هل تريدين أن أتزوج بأخرى؟.

- حقك، ولد يحمل اسمك.

- أعرف أنك تكرهينها منذ البداية.

- الموضوع ليس له علاقة بالحب أو الكره.

- فكر يا ابني العمر إلى زوال.. الأولاد نعمة.

أنهت أمي نصيحتها، وتركت مصطفى يقرر مصيره، كان هذا الموقف صعباً على سوسن وأمي، فقد رجعت سوسن إلى

شقتها دون أن تبدى أي رغبة للكلام مع أمي، ورأى مصطفى أن ذلك حل مؤقت ويترك الأيام تعالج هذا الموقف.

كان صلاح يمضى جزءاً كبيراً من وقته أمام الكمبيوتر، كان عقلانياً، يدرس أي موضوع بنظرة ثاقبة وموضوعية، لا يركن إلى العواطف في شيء، فلغة العواطف لا يعترف بها، بل يطلق عليها مصطلح هراء، سطحية، حتى إحساس الحب كان يمنطقه، إنه مجرد شعور مصدره العقل الذي يعطى إشارة لحاسة جزئية لتدرك انفعال معين، والدور الوحيد للقلب فى هذه العملية العقلانية هو ضخ الدم في الجسم فيتسارع النبض، وتلهث ضربات القلب..

أنا أجلس أمسك بأوراقي وأكتب أو أتصفح كتاباً، وفى بعض الأوقات نجلس مع الحاجة نادية لمشاهدة فيلم، لا يرى من الفيلم سوى الأحداث، وعندما يكون هناك فيلم رومانسي، أترك الأرض وأحلق عند النجوم، و أستمع للحوار العاطفي بتأن وقد يغالبني البكاء، وعندما تضاحك على بكائي، أول مرة، حرصت على كتمان شعوري داخلي، حتى جثم على صدري، واختلق عبرة سدت حلقي ومنعت عنى الهواء، فكنت أسرع بالنهوض

قبل أن أسمح لدموعي بأن تطلق أناتي وتدفع داخل مسامي الهواء.

أشعر بجفاف المشاعر، برودة الحضن الذي يحتوى جسدي، المكلف بأداء دوره الموكل إليه، أما القلب لم يكن له أي دور، وعندما يسمعني أقرأ بعض أبيات الشعر من ديوان يتهمني بالخواء والرجعية، فأنا أعيش في عصر لم يكن قد اخترع فيه أي آلة..

كان مبهماً، فلم يجد فيه أصحابه وسيلة لضياع الوقت سوى العشق وبذل الدموع على الأوراق واستثارة القلوب الساذجة، لتجود بالعطايا.. أشعر أنى أتعامل مع إنسان متمنطق، لا يترك داخله مكاناً للشعور إلا من خلال اختراع أو ميكنة مبررة علمياً، لكنى كنت أجد رداً على سخريته من هذا الإبداع، فرغم أنه يحمل فكراً ومشاعر لعصور مضت إلا أنها ما زالت مقروءة ومحور اهتمام المثقفين والمبدعين، بل إن أسماء هؤلاء المبدعين مازالت تطلق على المحافل الدولية، حتى الآن، فهم لا يقلون شأنا عن العلماء أو مخترعي برامج الكمبيوتر أو التقنيات الفنية التي لا يعلمها إلا المتخصصون في هذا المجال فقط، ومن يحفل بهم، أو يحاول معرفة

اسم أي مخترع منهم إلا ما تسمح به الظروف بمعرفتها بالصدفة البحتة.

دائما، تنتهي كل مناقشة بغضبي من هذه العقلية التي تتعمد التقليل من شأن هواياتي، بل وإهانة مستوى تفكيري الذي لا يتفق معه في تفرد، تلك الآلة الجافة والتي لا تعي غير لغة الأرقام والأوامر حتى صار مثلها لا مجال للروح أو المشاعر في عالمه.

اعتقدت أن الزواج قد يحررني من وحدتي، لكنه دفعني حثيثاً للانزواء من جديد، حتى المجادلات التي أرهقتني لم أجد جدوى لها، أصبح البيت كمتحف منمق كل شيء مرتب في مكانه، لكنه يغط بالجمود بلا حياة أو أحياء، فرجعت أعيش حالة تفردي مع نفسي من جديد.

كنت أشكو لأمي من برودة المشاعر ورتابة الأيام، لكنها كانت تلقى علىّ تبعة ذلك لأني عاطفية بطبعي، وكانت ترى في صلاح الرجل العاقل الرشيد، الذي لا يوكل الأمور إلى العواطف فهي في نظرها، ضعف، كلام فارغ، وأنى فى وضع تحسدني عليه الكثيرات، وأن الحل في إنجاب طفل ليقرب بيننا ويعطيني الحياة، ويكون مجرى للحب الذي يمنحني الدفء.. لكنني ترددت كثيراً،

فى هذه الخطوة، فهو غير قادر على احتوائي بمفردي، فكيف يكون الوضع عندما يولد طفل؟ . . هل سيكون مثلى، يفتقد الحب، أما أن الوضع سيكون مختلفاً، فقد يمنحه بعض العطف والحنان لأنه يحمل ميزة ليست عندي، ربما لم تمنحها لي الورقة التي بيننا، وهو الانتماء إليه اسما وعصبا . .

رغم ذلك، حرصت على تأجيل هذه الخطوة بتناول حبوب لمنع الحمل دون علمه، فيكفيني ظلم نفسي، لن أتحمل ظلم غيري، قذفت بكل كياني نفسي اليتيمة إلى الاهتمام بعملي، حتى أعلنت نتيجة الدورة الجديدة لقبول المذيعات.

الفصل الخامس عشر

سعدت بخبر قبولي كمذيعة، كمن احتضن القمر وطواه بين يديه، الحلم الذي طالما راودني وبذلت من أجله الكثير من الجهد، شعرت أنه عوض من الله على حالة الحزن التي تفعم قلبي، فهي سلم العروج إلى برج عال للهروب من أحراش الواقع، لكي أهوّم في الأرض فلا تطولني برودة الركود في مستنقع الملح..

عدت لمنزلي، لأمنحه فرصة ليشاركني كسرة الفرحة، لكنه تنصل من أي مشاركة بل أبدى استياءه من هذا العمل، واعتبره سفوراً وانتهاكاً لحقوقه كزوج، فكيف تكون زوجته موضعاً لعين الراصدين من الناس؟..

تعجبت لقصور نظرته، فأنا سأشترك في برامج ثقافية، ولست مذيعة ربط، أساس عملي هو الحوار في موضوع ثقافي، فمحور التركيز سيكون ضيف الحلقة.. لن تشملني عيون الكاميرا سوى لقطات عاجلة، وأصر على رفض هذه الفرصة، وبالطبع ساندته والدته، وأبدت غضبها الشديد كأني اقترفت جرماً، وألحقت بهم

الخزي والعار.. وعندما شكوت إلى أمي، لم تنصفني هي الأخرى، بل أضافت مقرظة فعالي:

- طالما ذلك يغضب زوجك، فلا داعي للاستمرار فيه، فلا شيء يستحق خراب البيت.

- يا أمي هذا حلمي.

- بيتك أهم من حلمك.

وبالطبع عرفت سلمى بالمشكلة وقصت الحكاية بكامل حذافيرها لأحمد، الذي صدمني هو الأخر عندما قال:

- يا إيمان أنت زوجة لرجل ممتاز، لا يُنقصك شيء، يلبي كل طلباتك، فلا تبحثي عن مصدر مشاكل لأمر لا يستحق.

أصبح هو الآخر صورة مكررة من زوجي، رغم أنه من بث في نفسي الحافز والأمل، لكنى أدركت أن الزواج يفقد المرء أحلامه وطموحه، بمجرد التوقيع على الورقة يتنازل عن حقه وبلا رجعة في ممارسة فعل الحياة. غير أنى خرجت من جولتي بأقل مكسب، وأقصى خسارة، وهو عملي فى إعداد البرامج الثقافية، غير أن الأحداث تأتى تباعاً، فعند حلول فصل الشتاء كان لابد من

استبدال بالملابس الصيفية أخرى شتوية، وكنت قد نسيت أنى دسست حبوب منع الحمل في وسط ملابسي، وفى يوم الأجازة قررت استبدال الملابس فطلب منى هو الآخر أن أخرج ملابسه الشتوية، وعندما عجزت عن فتح حقيبة الملابس الكبيرة طلبت منه فتحها، وأغفلت وجوده في الحجرة ومحاولته فتح الحقيبة، فعندما سحبت الملابس من الرف سقط شريط الحبوب على الأرض، فلمحه بطرف عينه، وسأل عن نوع هذه الحبوب، ارتبكت.. بحثت بداخلي عن أي مبرر، ثقلت الكلمات على شفتي، أخذ يقرأ اسم الحبوب، وصرخ منادياً على والدته، وأعطاها الشريط؛ أخذت تمطرني بالسباب بأني جاحدة وأحرم ابنها من الولد الذي تنتظره، و... و... كانت هذه اللحظات طويلة أشعر بثقلها، وتكاد أذني تقطر سخونة من شدة حرج موقفي.. لم أجد ما أفعله سوى الصمت والاستعداد لمعركة ضارية من جميع الجبهات.

أخذ الشريط، وأسرع به إلى بيت أمي، وما هي إلا لحظات، وحضرت أمي تعنفني، وتمسك بخصلات شعري التي تناثرت بين يدها، وتنعتني بالجحود وأني وضعتها موضع الحرج، وأنها لم تحسن تربيتي.

حاولت استرضاء زوجي، كمحاولة ليسامحني هو ووالدته التي رفضت مجرد دخولي غرفتها، أو أن أقدم لها شيئاً من يدي، حتى لو كان كوب ماء، تحملت كل شيء صامتة، وأقسمت أمام الجميع بالتوقف عن تناول الحبوب..

وبعد مرور فترة من الخصام الذي ربض شباكه حول علاقتي بزوجي، منحت جسدي الفرصة ليمارس آلية وظيفته في حمل بذور جنين، وفق جدول زمني يتفق مع فترات التبويض كي تكون النتيجة متعادلة ظروف خصوبة متوفرة في أرض ريانة تنتظر بذور تجيد التمسك بالأرض.. أشفق عليه من أن يلعق معي برودة الجليد المترامي بين جدران منزلي، حتى شعرت بنجاح الغاية والتي من أجلها تتوحد الجهود، وملزمة ببذل الطقوس الأبدية لحفظ النسل من الانقراض، رغم سعادتي أنى على وشك ممارسة الأمومة، لكن خامرنى شعور بأني ربطت روحي بعمود أسمنتي بين هذه الجدران.. أصبحت تعوقني عن إطلاق روحي فى أجواء الفضاء، لتصبح الروح حبيسة الجسد، وكهوف الحرمان.. هل يمكن أن أحطم مركبتي الحريرية التي تنقلني بين سطور تهدهد حرماني الأبدي من الحنين، من الوجد الذي جفت أوراقه،

لنضوب قطرات الغوث التي استسقيت لها، لكنها سحب صيفية، لا تمنحني سوى قيظ يكوى كبد صحراء أيامي.

غير أن هذا لم يكن الحدث السعيد فقط، فقد رزق أخي أحمد بابنه عمر.. سعدنا جميعاً به، وأقام له حفلاً كبيراً، شعرت بسعادة وحنين فياض نحو الأمومة، وأنا أحمل ابن أخي، فأضع يدي على بطني التي بدأت تشكل نصف قطر دائرة ـ أتحسس بيدي، تلك النبضات التي أشعر بها منذ دخولي الشهر الرابع من الحمل، والتي وثقت لصلتي به، فهو في ظلمته يشاركني ظلمتي، ينقر على الجدار الفاصل بيننا، لعله يؤنس وحدتي ليبلغني رسالة أنه العوض لي عن برودة الجليد التي حتما سيشاركني فيها، لكني سأمنحه دفء نفسي، ليئوء عنه شبح الوحدة ويبعد عنه الرغبة في التجول في تخومه...

حزن قلبي على مصطفى وهو يحتضن عمر، ويغدق عليه بهدية ذهبية، كانت رعشات تعترى صدره المتهدج من شوقه لابن، الجميع ينظر إليه، وسوسن صامتة تتحامل على نفسها.. لم أرها منذ فترة طويلة، كانت على النقيض مما أعرفه عنها، تجمع شعرها خلف رأسها، لا تضع مساحيق، ألوان ملابسها باهتة،

فقدت البهجة كما فقدتها هي، انتحت أمي فى ركن بالبيت تنظر للجميع، وتتوقف على مصطفى تستشعر ألمه، لكنها قد أقسمت أنها لن تتدخل في حياته مرة أخرى، ويتحمل تبعة رفضه الزواج بأخرى بمفرده.

لا أدري لماذا الآن تنبهت إلى حقيقة أنني شاركت أباك دون وعي مني تطبيق منهجه في آلية وظائف الجسم، وإن لم أسبغ هذه الميكنة إلا على أشد الأماكن خصوصية بجسمي، بل أني نزعت عنه حاسة لم أعرفها على مدي سنوات عمري.. هي لذة التواصل والمشاركة بمشاعر مطمورة لم تزل في شراشف الخجل، لماذا لا أطلقها حرة.. لتأخذ ما شاءت من حروف.. أو شكل، لتكون آهات أو كلمات شبقية.. اكتشفت أننا حتي في لحظة تجمعأاشد خصوصية بأجسادنا لم نشترك في تواصل جسدي فكل منا يكتفي بالتغوط في جسد الآخر مغمض العينين له عالم بمفرده يقدح فيه لذة جزء يخصه وحده..

لم تنقطع أمي عن الاتصال بسمر، والاطمئنان على رحمة، التي على مشارف الالتحاق بالمدرسة، وتضع لها أمي صورة كبيرة في إطار ذهبي، في حجرة الصالون، كذلك كانت ترسل لها المبلغ

الشهري الذي تعهدت به من أجل رحمة، وقد أخبرت رحمة أمي في آخر اتصال بها بكلمة شطرت قلبها إلى نصفين:

- ماما ستحضر لي أخاً صغيراً، ليلعب معي.

تلعثمت أمي وهي تحاول إنهاء المكالمة وهي تقول لسمر:

- مبروك يا سمر، ربنا يكتب لك السلامة.

عرفت منها، بعد أن ترددت في البوح عنه، لكنى قلت متألمة:

- حقها أن تعيش، وتنعم بالدنيا.

نظرت لي صامتة، وهي تهز رأسها، مؤيدة كلامي الذي يؤلم كلانا، لكنها فلسفة الحياة، الموتي تبقى لنا منهم الذكرى، لكن الأيام تستمر..

منذ فترة طويلة لم أر سهير، لذلك قمت بزيارتها واشتريت لعباً لابنها سامح الذي يقترب من الثالثة من عمره، كانت سعيدة وأنا كنت محتاجة لمجالسة من يحظى بهذه النعمة، لكي تستشري السعادة في كياني أيضا المترقب لوصول طفلي في حضني، لكنها أخبرتني بأنها رأت أخي مصطفى في العمارة، مراراً، لكنه لا

يتذكرها بدليل، أنه لم يُلق عليها التحية، أو يسلم عليها عند نزوله مع السيدة المقيمة في الدور السابع من العمارة، فقلت لها: ربما يعالجها، ويأتي في زيارة منزلية لها من وقت لآخر.. لكنها فاجأتني، بأنها كانت تتأبط ذراعه، وركبت معه السيارة أكثر من مرة، بهت من هذا الخبر، فطلبت منها محاولة معرفة معلومات أكثر من بواب العمارة أو إحدى جاراتها للوقوف على حقيقة الأمر.. أخفيت هذا الموضوع عن أمي، لعلمي بموقفها من مصطفى، لكني تلقيت اتصالاً من سهير بعد أيام لتلقى على مسامعي خبراً صعقت له، مصطفى متزوج هذه السيدة، وهي طبيبة أطفال، تعمل معه في المستشفى.. شعرت بتوتر كبير، لم ألُمْ أخي على تصرفه، فهذا حقه شرعاً، لكني تعجبت من موقفه في إخفاء خبر زواجه، هل لحرصه على مشاعر سوسن، أم خوفاً من مشاكلها وإلى متى يمكن الاستمرار في تكتم هذا الأمر، وهل ستقبل الزوجة الثانية تهميش دورها في حياته والاستمرار في إخفاء زواجها عنا، وكيف قبلت عائلتها هذا الوضع الذي بلا شك يسيء له.. من يدري ما الظروف التي تمت فيها هذه الزيجة، أشفقت على أخي من الضغط النفسي الذي يعانيه ليظل زواجه في طي الكتمان، وكيف يستطيع التوفيق بين زوجتين دون التقصير مع

إحداهما، وبين وظيفته في المستشفى الحكومي في الصباح والخاص مساءً، وبعد تفكير قررت أن أفسح لأخي مجالاً ليتخلص من حمله الذي يثقل كاهله، أمنحه ظلاً يفيء إليه من ضغوط الحياة التي يدخل غمارها بمفرده، ليمارس فعلاً أعجز أنا عنه، وهو البوح، حتى لا يكون أسيراً مثلي في كهنوتية الخوف، ويمارس شعائر الصمت.

اتصلت به على هاتفه الخلوي، وطلبت منه أن يمر عليّ في مبنى التليفزيون. اعتقد في البداية أني في مشكلة، لكني طمأنته، وعندما ألح في معرفة السبب، قلت له أنه موضوع يخصه، اتفقنا على أن يمر عليّ في الغد، ريثما أستخرج له تصريحاً بدخول المبنى، وذلك قبل ذهابه للمستشفى..

بمجرد دخول مكتبي، رأيت الانزعاج والقلق على محياه، بعد أن ارتشف من كوب العصير استفسر عن سبب الاتصال به، وحين أخبرته نهض عن مقعده بعفوية، ثم جلس وتمتم:

- نعم، من أخبرك؟

- سهير صديقتي، تسكن في نفس العمارة وعرفت من البواب.

- أنا لا أفعل شيئاً حراماً، هذا حقي.

- أنا لا أنكر عليك حقك، لكنك تظلم نفسك، بضغطك على أعصابك.

- هذا أفضل من معرفة سوسن الحقيقة.

- لن تستطيع الاستمرار في إخفاء زواجك، أنت تظلم زوجتك الثانية، كلما مر الوقت زادت صعوبة الموقف.

- إيمان، سأختار أنا الوقت المناسب، أنا أدرى الناس بشئوني.

- مصطفى.. أنا قصدت، فقط مساعدتك، فهذا شأنك.

على الرغم من أن المسافة بيني وبين مصطفى منذ صغرنا بعيدة، لكنى لم أتوقع منه معاملته الفظة لي، لكنى لم أندم؛ فأنا أفعل ما يستوجب علىّ فعله، وإن كان رد الفعل أحرجني لحد كبير.

بعد أسابيع، اجتمعت مع أخوتي وأمي عند أحمد، ابتهاجا بختان عمر، وقامت أمي بإعداد العقيقة، وذهب أحمد ومصطفى لتوزيعها على المساكين بجوار المسجد القريب من منزلنا.. لم

أحدث مصطفى في أي تفاصيل، لكنى لم أستطع إخفاء غضبى من موقفه معي، فكان لقاءً يكسوه الجليد، شعر هو بذلك، لكنى لم أحفل بشعوره، فلم يعد لدى مقدرة على مجالدة نفسي على إبداء مشاعر الود إذا كانت عكس ما أبطنه بثنايا ضلوعي.

مرت شهور الحمل بثقل شديد، رغم ذلك حرصت على استمرار كتابة حلقات البرنامج بنفس درجة الكفاءة، وإن كان الأمر لا يخلو من بعض نصائح زوجي والحاجة نادية من ضرورة العناية بالراحة والنوم لأطول وقت ممكن، مع الحرص على متابعة الحمل عند الدكتورة، وتناول أقراص الفيتامين في وقته في البداية سعدت باهتمام زوجي بكل ذلك لكنى عرفت أن هذه الجرعة من الحنان كانت من منطلق حرصه ليأتي طفل سليم، شعرت أن دوري هو ككيان متحوصل يتم العناية به كطور انتقالى لحين تنتهي مرحلة الانسلاخ من الكيان المضيف، وقد بدأت أشعر باقترب هذه المرحلة، كانت آلام المخاض متقطعة عنيفة، كوخز نصل سكين في أحشائي، ثم تسقطه في دائرة تعتصرني، فى قبضتها وتهدأ، ويعاود التخبط وأسقط في قبضة الألم من جديد، لكنه هذه المرة يبتلعني بين مخالبه، يجتمع حولي إخوتي، وأمي تبكى خارج

حجرتي في المستشفى التي تعمل بها الطبيبة المشرفة على حملي. . أفتح فمي، أحاول الصراخ لكني أبتلع ألمي، أكتفي بأنين ممزع، أقبض على وسادتي، أحاول النهوض من فراشي، لا أستطيع، لا أجد لجسدي وضعاً، يخفف عنه هول ما يعاني. . عبثاً أغمض عيني لعلي أبحث عن إغفاءة أتوسد حضنها، أطبق أصابع يدي داخل كفي. . تحاول الحاجة نادية وضع يدها على بطني، تتلو بعض آيات القرآن، زوجي أراه في الردهة يتكلم مع الممرضة، يستعجل حضور الطبيبة، وأحمد ومصطفى ينظرون إليّ في صمت، وتحاول أمي الخروج من بكائها، وتمنحني بعض الصبر، وتمسح قطرات العرق المتساقط من جبهتي، وتمنحني راحة يدها أعتصر ألمي بداخلها، علها تخلصني من بعضه، وبعد لحظات دخلت الممرضة للكشف من جديد، ومعها كرسي المرضى جلست عليه، وولجت غرفة العمليات. . وجدت الطبيبة، دكتور التخدير وبعض الممرضات، وتم تقييدي في أعمدة مثبتة في السرير، وبدأ صراخي يملأ سكون المكان، ثم رأيت دوائر ابتلعتني داخلها، مع حقنة المخدر الذي حظيت به، أخيراً.

- إيمان. . . إيمان.

أفتح عيني بصعوبة، لا أستطيع تحديد الوجوه حولي، مجرد أشباح لأشخاص أعرف أصواتهم، لكنى لا أدرك معالمهم، أشعر بصداع، إعياء، ألم في كل جسدي الذي تفوح منه رائحة الأدوية.. وجدت ضمادات في يدي، في مكان وخز الحقن... بدأت أستعيد رؤيتي للأشياء، ولكنى أشعر بألم، بعد زوال مفعول المخدر، أعطتنى الممرضة مسكناً، سمعت أمي تقول:

- بنت جميلة، مثل أمها.

لم أشعر بأي رغبة في أن أراها، فالمغص يلتهم ما تبقى لى من جهد، لكن صراخها أصبح يؤلمني أكثر من ألمي، فجلست بشق وتوكأت على يدي اليسرى أعطتنى إياها، سلمى، قائلة:

- حاولي إرضاعها، لتشعر بأمان، ولتسد جوعها.

لا أعرف كيف أجلس وكل جسمي متألم، لكنها تصرخ جوعاً. تحاملت على نفسي، منحتها ثديي، وتركتها، لكن صراخها لم ينقطع، أسرعت الحاجة نادية ووضعت فمها في مصدر الدر، وظلت تعلمني كيف أجعلها ترضع.. لم تستطع زهرتي امتصاص رحيقها، سال رضابها على ثديي، وهى تصرخ، حتى

جاءت الممرضة بجرعة الجلوكوز، وفي قطرة صغيرة نقطة تلو الأخرى حتى نامت.

الأيام الأولى لي معها كانت متعبة لكيلنا، وبالوقت بدأت أتعلم ممارسة طقوس الأمومة، أسميتها: "سهاد".

obeikandl.com

الفصل السادس عشر

تلك التفاصيل الرقيقة، بدأت تتشكل لوجه ملائكي صغير، ينظر متأملاً كل الأشياء المحيطة، كل الوجوه المتفحصة لعينيها التي تأخذ عسلها من مقلتي وبياض بشرتي، و غمزتيّ، أما الأنف الطويل وشعرها الأسود فمن أبيها.. لوحة جميلة، تكاتفت في تشكيلها جينات وراثية من أجساد قريبة وأرواح بعيدة.

أيام السهر طويلة، والصراخ لا ينتهي ولا يتوقف إلا لفترات بسيطة، كان الليل له بريق، سكون لا تسمع فيه إلا مناجاة النجوم، والعشاق على امتداد هذا الفضاء الشاسع، أما الآن فقد أصبحت أجده عبئاً ثقيلاً، يحمل صراخ صغيرتي، وحتى تنفس فجر يوم جديد، كنت ألجأ لكل ما أعرفه من طرق للترفق بها وبكل الكائنات من أن يتمزق ستار الليل بهذا الصراخ الذي كاد يفقدني عقلي، كانت أمي تعاونني في فترات الصباح تحملها عني، كي أنال قسطاً من النوم قبل أن تبدأ دورة جديدة من العذاب اليومي، كانت أمي تتضاحك قائلة:

- الأمومة ليست هبة بلا ثمن، لتعرفي كم تعبت فيك أمك.

نعم الآن عرفت كم تعبت أمي، رغم أنى لم أنكر عليها هذا الفضل من قبل، لكن تجربة الشيء تختلف بكثير عن مجرد ترديد الشعارات، كذلك لا أستطيع أن أنكر مساعدة والدة صلاح لى، بقدر استطاعتها فقد تحملها ريثما أعد لها مسحوق اللبن المخلوط بالفاكهة، أو إنجاز بعض الشئون المنزلية.. كان صلاح الوحيد الذي لا يفكر فى تقديم أي مساعدة بحجة أنه لا يعرف كيف يحمل طفلاً رضيعاً، فكنت عندما تتدافع موجات الغضب في عروقي أذكره بأنها ابنته، ومن الطبيعي أن يشتاق أن يحملها بين ذراعيه، وأن هذه الرغبة الفطرية وحدها كافية لتخلصه من التردد في حمل طفلته، على أساس تفسير الأشياء من وجهه نظره العقلانية البعيدة تماماً عن العروض الهزلية التي تحكم الإنسان فى تصرفاته والتي يطلق عليها المشاعر.

مرت شهور يختلط فيها إدراكى لليل والنهار، ولكنى أرضخ تحت تعاقبها، وأستشعر مرور عدد لا أعرفه من الأيام، لكن النتيجة الوحيدة والتي أثمر عنها هذا الكم من الأحداث المتتابعة من حالات المغص وزيارة الطبيب بشكل أسبوعي تقريباً ثم بدا يقل تدريجياً، بعدما استقرت حالة سهاد في تناول وجباتها، واختفاء

تلك الالتهابات من لسانها، وكذلك حدوث توازن بين الإمساك والإسهال، والالتزام بجدول التطعيم، وبعد بلوغها الشهر السادس أصبحت أنعم بقسط أكبر من النوم، غير أن ذلك لم يستمر لفترة طويلة، فقد حان موعد اكتساء فراغ فمها بحبات اللؤلؤ، التي كان ثمنها في التعب والإجهاد يعادل ثمن شرائها.. كانت تلك أصعب محطة تستقلها مع طفل حتى تصل به ومعها، إلى وضع مستقر يمكن بعده الخلود للنوم الذي لا يعرف حلو مذاقه ويشتهيه إلا من أيقظ قلبه العشق، أو أيقظه صراخ طفله المستمر.

قدمت طلباً بمد الأجازة عاماً آخر، في هذه الأثناء تعرضت والدة صلاح لأزمات صدرية متلاحقة، تم حجزها في المستشفى، لكن للأسف لم يكتب لها النجاة في المرة الأخيرة، حزننا كلنا لفقدها، وخوفنا على سلمى التي كانت في الشهور الأولى لحملها الثاني، وقد حاولنا جميعاً بذل كل ما لدينا من جهد للتخفيف عنها، حتى أن أمي صعدت للإقامة معها لعدة أسابيع حتى تراعى عمر، ريثما تستعيد سلمى مقدرتها في اجتياز هذه المرحلة الحرجة من الحمل، وطبعاً لم أستطع طلب أي معاونة من أمي لاحتياج سلمى للمساندة أكثر مني..

أصبح صلاح أكثر صمتاً وانـزواءً علـى نفسـه عـن ذي قبـل، أكيد هو متألم لفقد أمه، كنت أحاول أن أبذل له كل ما يمكنني من كلمات المواساة والانخراط مع سهاد في أحداثنا المستمرة.

بدأت تخطو سهاد أول خطوة، وتتلعثم وهـي تسـقط حـروف أول كلماتهـا، وبمـرور الوقـت ازدادت حصـيلة المفـردات في قاموسها، وإمكانها التعبير عن احتياجاتهـا، فشـعرت أن الوقـت حان لمتابعة عملي والخروج مـن لجـة الركـود، وفاجـأني مصـطفى بزيارة ليخبرني باحتياجه لمساعدتي في أن اخبر أمي بزواجه الثـاني، وتعضيد موقفه أمام سوسن وأهلها خاصة أن إيناس حامل وتحتـاج لمن يرعاها ولا يستطيع التوفيق بين عملـه ومراعاتهـا، فهـي يتيمـة كانت تعيش مع عمتها وهي سيدة مسنة والاستمرار في إخفاء الأمر عن سوسن أكثر من ذلك سيزيد الأمر تعقيدا، لم أردْ إلقـاء اللـوم عليه، حين رفض الانصياع لرأيي منذ فـترة، حـين رأيتـه يسـتنجد بي، فقررت إنهاء الأمر على الفور، أعلم بأن ذلك سيشعل ناراً في فتيل المشاكل، لكن لا مفر من ذلك.

تعجبت مـن سـعادة أمـي بـالخبر، دون أي تعجـب مـن خـبر زواجه، فأخبرتني أنها كانت متوقعة ذلك، واتفقنا على مصـارحة

سوسن بسرنا. . صعدنا إلى شقة سوسن، قابلتنا بابتسامة، وأخذت سهاد من على ذراعي، وأخذت تمنحها بعض البسكويت، وتغنى لها. . قدمت لنا عصيراً، وأصرت أن تشرب سهاد العصير بنفسها. .

شعرنا بثقل مهمتنا، تبادلنا النظرات أنا وأمي في صمت، حاولت الدخول في مواضيع متعددة لكي تقربنا من بيت القصيد، لكنى لم أوفق، فقررت أمي إلقاء قنبلتها بدون تمهيد. . بكلمات مقتضبة سريعة الاختراق

- سوسن. . مصطفي متزوج وزوجته حامل.

مزق فراغ الحجرة صراخ سوسن، وسبها للرجال الذين لا يوفون بوعدهم، ولا يستطيعون كبح جماح شهواتهم، يختلط عندهم بنات الأصول ومن هن يستبحن خطف الأزواج من زوجاتهم. . علا نشيجها، شعرت بقلبي يرتجف بين ضلوعي حزناً عليها، تخيلت نفسي في مكانها، ترى هل سيكون رد فعلى مماثلاً؟. . ربما سأشعر بوخز في كرامتي، هذا هو المبرر الوحيد لكنى حتماً لن أشعر بمعاناة قلب سوسن المفطور على حبيبها. أمي

هي الأخرى، لم تسلم من الحزن عليها، قامت من مقعدها واحتضنتها بحنان بالغ، همست:

- يا ابنتي، له العذر يسعي ليكون له ولد يحمل اسمه.

تستمر في بكائها:

- ما ذنبي، ليس بيدي شيء.

- ومن منا يلومك على قضاء الله.

لم تجد أي كلمة في تخفيف وقع صدمتها، لكن الأيام كفيلة بالتئام الجروح. . احتدم النقاش بين عائلة سوسن وأخي لفترة طويلة، وقد تعهد بعدم التقصير في شيء تجاه سوسن، وقد أوفى بوعده.

تبدد التوتر الذي استبد بنا بوصول رحمة مع أمها وأخيها محمود، بمجرد سماع أمي اسمه التقطته بين حضنها، وأغدقت عليه كل الحنين إلى من غاب منذ سنين، وترك مكانه شاغراً في قلوبنا، بلغت رحمة عامها العاشر، كانت جميلة يسكن الليل شعرها. . سعدنا بها أيما سعادة، شعرنا بقلب محمود ينبض من

جديد بالحياة في قلب رحمة، كانت رحمة ضيف شرف فى بيت كل واحد منا حتى سافرت مع أمها وأخيها.

***

- أفكر في إنهاء الأجازة والعودة لاستلام عملي.
- ابنتك ما زالت في حاجة لك، لم تمر أيام على فطامها.
- ستكون مع أمي، وسترعاها أفضل منى.
- بالطبع تقصدين عملك كمعدة برامج.
- هل سيكون هذا مجالاً للنقاش من جديد؟
- هذا الموضوع منته، ولا مجال للخوض فيه من جديد.

قبلت على مضض، فكان قدري التعايش مع أنصاف الحلول، استمرت الحياة على وتيرة واحدة، سهاد مع أمي خلال فترات عملي، أيام الأجازات أرعى شئون البيت، زيارة إخوتي، خاصة بعد أن رزق أحمد بابنته مريم، ومصطفى بابنه حسام، كنا نجتمع عند أمي يوم الجمعة لتناول وجبة الغداء على الرغم من

موقف سوسن عند زواج مصطفى، إلا أنها كانت تحب ابنه وتأتي له بالهدايا، وكثيراً ما كانت تقول:

- هو ابنى، من بطن أخرى.

كانت تسعد مصطفى كلمتها، فيزداد شفقة عليها ويوليها عطفه.

كان عملي هو المسرب الذي أبحث بين ثناياه عن نبضة دفء، لقلب قيد وثاقه في مستنقع الوحدة الراكد.

حضرت المؤتمر السنوي للأدباء والذى استضافته الإسكندرية، كان من بين ضيوفه الشاعر الأثير عندى، كم كانت كلماته تجعل شراع قلبى يطفو على أمواج الأفق الوردى، أول مرة يجمعنا لقاء شخصي، كان وسيماً، تكسبه نظارته الطبية غموضاً وجاذبية تأخذ متحدثه ممن حوله ليستقر بين عينيه، رهيف الإحساس، في وسط هذا الجمع من الحضور دار بيننا حوار عن أحدث دواوينه الشعرية، وما يثار من قضايا معاصرة حول التطورات الشعرية، كنت أدون رده على أسئلتي، رغم أنى لا أسمع سوى صوت أنفاسنا التي تختلط بالكلمات، وفى نهاية الحوار شعرت أن

بداخلي شيئاً يأبى أن يتركه، كأن روحَيْنا قد انصهرت في بوتقة يصعب فصل إحداهما عن الأخرى بدون ألم أو تمزق.

رجعت حالمة، مزقت عنى شرنقة الوحدة، لكن سعادتي مجرد قصور رمال ستغرقها دمامة الواقع، حاولت جاهدة أن أغسل روحي من وهم كاذب، أفضت من روحي على ابنتي، وسدت قلبي المرتجف على صدرها الصغير، لعلى أجد في حضنها ما يبدد شعوري بالضياع، مدادا لا ينضب ليحرر حروف تتعملق فلا تتسع لها مساحة الصدر، يسمع حفيف الموج بين أركانه، تنساب من مدامعه جبال الملح، ويرتد له جناحان، على أهداب الجفن المتعب.

***

مرت شهور، أجتهد في عملي، لا أترك لنفسي مساحة لتتمرد على رفضي، الانصياع لتوسلها بالاتصال به حتى وجدته أمامي، بعد خروجه من مبنى التليفزيون وتسجيله لقاء مع أحد البرامج، عرفت منه أنه موجود لعدة أيام، و طلب أن أتصل به ليعطيني أحدث ديوان له، وعدته بالاتصال، لم يستطيع أحدنا أن يخفى سعادته بلقاء الآخر، وعندما أرسلت أحد الفنيين إلى الفندق المقيم

فيه ليحضر الكتاب، رفض أن يعطيه له، بل وفوجئت به يتصل ويطلب لقائي.

لم أستطع منع نفسي من الذهاب إلى موعده، كنت قلقة متوترة، حتى لاحظ هو ارتباكي، حاول تهدئتي، فليس هناك ما يسوء من مقابلة الغير في مكان عام.. حاولت التقاط أنفاسي، وبدأت هالة من السعادة تحيط بي، منحنى الكتاب مذيلاً بالإهداء، أخذنا الحوار إلى مناحي متعددة، كم كان حديثه عذباً، صوته رصين، يمتلك ناصية الأمور، يمتلك قريحة تقطر كلمات بلورية تشف وجدان محاوره، تجعلها تتنصل من قشرة الوعي، يمنحها فضاءً رحباً ينكمش داخله ضباب الجروح، لم أعد أسمع داخل وريدي دبيب الوحدة، فنحن نتشارك الحرف الخالي من الشوك، الجرح المندثر تحت الجلد تركته وخلفت لديه روحي، لأعاني الغربة دونه.

يتواتر ارتعاش حوائط المدينة حين تهتز تميمتي المدلاة في عنق الأسطورة العقيمة، لا تتناسل إلا العدم.. لم تنبت إلا عشقا واحدا.. وحين مزقت حبلك السري عن جذورها أجهضت كل المواقيت.. كل الحروف ترواد العمر أن يسري بعروقه دم

اللحظة، لكنه يأنف أن يجتزيء من الشجرة المحرمة بنبض غيرك..

لم تزل رتوش الحزن فوق لوحة التكوين.. تتمطى في دفاتر القلق.. تهفو لتتفيأ شهقة الحنين برئة النهر وارتحال حلمك المسجي في ليل ضلوعك وتنداح لصمتك..

ولدت من رحم الأمل، تشكلت امرأة من جديد، تعشق الألوان، تبدع في وضع المساحيق، اكتشفت أني لم أطلع على مجلات الأزياء منذ سنوات.. انتظمت مواعيدي عند مصفف الشعر، في فترة وجيزة أعاد لعمري سنوات سقطت رغماً عني، تحررت من صدأ القيود، نبض قلبي بالحب، فإلى أين تأخذني أيها الحب؟!

الفصل السابع عشر

لم ينطق بها، ولم أكن أحتاج لسماعها، فأنا أشعر بها في دفء صوته في اتصاله اليومي، أصبح بيننا موعد متصل لم نتفق عليه، ولكنّ روحانا دأبتا على تجديده، ليس بيننا لغة للكلام، فكلانا يشعر بقلب الآخر، فالاحتياج للتعبير باللسان يكون بين الأرواح الغريبة، لكن بدأ شعور بالانشطار يغلب على نفسي، فأنا معه، وإن كان على البعد أشعر بالحياة، وعند عودتي للواقع أتكلس داخل وحدتي من جديد، كأن رئتي قاصرة على التنفس إلا من خلاله هو، لم أعد أعرف نفسي بدونه، فهو يكمل معنى وجودي.

اختلطت داخلي معان عديدة، كيف أجمع داخل كياني الموت والحياة، الدفء والصقيع، الحب واللاحب، صممت على العودة إلى الوحدة، اخترت أن أعيش له، لا أسمح لغيري بأن يشاركني نسمات الذكرى التي أسبح فيها على امتداد فضاء روحي، جدلت منها تميمة علقتها في جدران شرفتي، ليحملها الهواء بين نسائمه ليظل عبق أسراره يحيا بين أوردتي ولا يتلاشى ذكره، بل يتجدد،

لا يمضي ويتركني وحدي، يسبغ عليّ من دفء دثاره، ما يعينني على برودة الوحدة بين شخوص تربطني بها صلة الدم، لتبقى صلة الروح بيننا، تحلق فوق مستوى البشر، أفر معها من رواسب البشرية وتفرده بالذاتية، التي تبهت عندها صورة غيره، من أجناس الأرض.

أشعر بحنين إليه، ترى هل فقدته إلى الأبد؟.. قال لي عدم اتصاله مبرره الوحيد، الكم الهائل من المسئولية التي يرضخ لمتطلباتها، لكنه لم يغفل رسائلي، بل كان حريصاً على الرد عليها، وإن كان في كلمات مختصرة، فأين هو؟.. دائما يجد له قلبي شلالاً منهمراً من الأعذار في صحراء الوحدة دونه، كثيراً، أشعر أن قلبي جزء منه وليس جزء مني، قد أكون أنا نفسي، جزءاً منه.. لم أكن أصدق أن يطرق الحب بابي من جديد بهذا العن، أخرج مذكرتي اليومية وأكتب إليه، كي أحرر كلماتي الحبيسة على سطوري، فليس لي ولها صديق وحبيب غيره

كلما أسرعت أدك الباب الخلفي، ينبت في كف الشمس أشباح لغيره، أمحو الجدار الفاصل بين الحرف ونقطة احتوائه ليكتمل المخاض، وتتحدد تفاصيل الرؤى.. تتشظى عناقيد

السطور، تحتدم برماد الواقع، يتسربل شفيف الحرف.. يهتريْ غزل الروح.. يصلب بين أغصان الضلوع، أعود.. أعود لشرنقة البدء.. محض امرأة علي قلبها وشم بلا ظل.

عندما كنت أغضب منه كنت أشتكى إليه، ها هو يغيب عنى، أشعر بغربتي عن نفسي، فهو القاسم المشترك الذي يربط بين كياني وبين جسدي، أجوف، خواء يشارك قافلة الأحياء في طقوس الحياة اليومية، لكنه لا يتعرف على هويته، إلا باكتماله بين يديه، أعجز عن ممارسة فعل الابتسام ومجاراة المحيطين حولي في المهاترات الحياتية، أو حتى أجراء اتصالاتي التليفونية، سيشعر المتلقي أنى أبحث عن الحروف، أبحث عن كيان يلملم أعضائي التي تتلفت، لتخرج من الإطار البشرى الذي يجمعها في جسد يتحرك بإشارات من عقل شارد، وقلب مشطور لا يصدر سوى غمغمة، أنين، يسقط الحرف على سطري مفعماً بالانكسار، أشفق على قلبي، أشعر معه بالطفولة التي لم تمنحني الظروف حق اللهو مع دماها، أترك جدائل شعري تنساب حرة بلا أشرطة ملونة، فمن حفيف السكينة بين كلماته يغدق على دنياي بمنظومة من الألوان الفسفورية، لم تَر العين أبهى منها تنساب من أيامي

لحظات القلق والخوف، فقد أنبتت ضلوع قلبه حولي سياجا شائكا، تحجب عنى الأشباح، في بياض عينيه ذات الوهج، أعشق صورة المرأة التي يراني فيها، تأسره في عالمها الأسطوري، تحبه بقلب كل نساء الأرض، غلبني الحنين إليه، رفعت يدي عن قلبي، أفسحت له مساحة ليبكى بين ضلوعه، لا أعلم من أين لى هذه الجرأة، لعل الضغط على نفسي أفعم انفجر بين تلافيف صبري، أدرت أرقامه بيد مرتعشة، خفقان قلبي يقذف بضلوعي كريح عاتية تهز أشرعة زوراقى، أسمع صوته:

- يضنيني الشوق إليك.

- لو تذكرتني لكنت اتصلت.

- عدم اتصالى لا يعنى أنك لم تخطري ببالي، فطيفك لا يفارقني.

- نفسي أسمع منك الكلمة التي...

- أحبك

- لا تقل بعدها شيئا

يكاهفني شذر الوجع أتسلل من مقبض الأغاني. . أهدل رداء البوح. . تعبث مناقير النوارس في الخط المنسل داخل وريدي الأجوف. . يجحفني. . يكابد الإلحاح ليمتطي زخات المطر. . يخترق حرفاً أصم يغوي اللحد، أن يصدح بخيال يحاك من رحيق الغابة، لكنه أغفل أن الموعد خارج أسوار العمر. .

الفصل الثامن عشر

لم أكنْ أدرى أن الأيام قد تحررنى من نصلها أو ربما قد تغمض عينيها نصف إغماضة عنا، عندما انتدبنى المسئول الثقافى للتليفزيون للسفر إلى تونس، ضمن وفد الإعلاميين لتغطية الملتقى الأدبى للأدباء العرب على أن ذلك لم يكن وحده مبرر سعادتى، فقد اتصل بى شاعرى، ليخبرنى بسفره لهذا المؤتمر، بل وعلمت منه أنه السبب وراء ترشيحى للسفر.

عبثا أعيد رمي سنابك وريدي كي يتمدد.. يلتحم في بوتقة تتسع لتعاريج انتظاره لرهافة زوائده، قطبه يتنافر مع كنه المسميات، يفر من رتوش زمان كل أصباغه تسيل على أرخبيل اليقين حين تعجن مجدليات خيوط الحكايا وتغدو طحين البيادر في كف القمر.

أشعر بروحى حرة طليقة.. هل أنا فى حلم يقظة؟.. تذكرة السفر تؤكد أنه واقع.. باقى أيام على سفرى.. أجلس شاردة الذهن.. أحمل نظرة خالية من أى تعبير على وجهى، لكنها داخلى وميض لهب يأتلق ويحترق شوقاً ولهفة.

كنت اختلق عذراً مقبولاً للبقاء فى بيت أمى أطول وقت.. أفر من ثقل الممارسات القسرية التى تفرضها الحياة الزوجية، لاحظت أمى كثرة زياراتى لها، فنادتنى:

- هل بينك وبين زوجك مشكلة؟

- أبداً... ما الداعى لسؤالك؟

- منذ فترة أشعر بأن داخلك ما يشغلك.

- أنا فقط مشغولة بسفرى..

- صلاح رجل طيب، ويكفى موافقته على سفرك.

- ممكن يرفض!

- بالطبع، هذا حقه.. وله حقوق أخرى.

- ماذا تعنين؟

- أتركى سهاد عندى الليلة، وأذهبى لبيتك.

- لا أحتمل البقاء دونها.

- كفاك لغوا، وكيف إذاً ستتركينها وتسافرين أسبوعاً؟

لم تسعفني الكلمات، أومأت برأسي.. فتحت حقيبة يدي، أبحث عن..، لا يهم.. انصرفت.

عبثاً أحاول أن أبعد طيف هشام عني، أسمع صوته، أطبق كفي لأستشعر لمسة يده، أغمض عيني كي أعلن احتجاجي الصامت.. أصبحت مومياء مصلوبة في السرير، أتململ، أشيح بوجهي عنه، أتعلل بالشعيرات النابتة في ذقنه، يتشبث بي، تسقط أعضائي في كهف البدائية لتلبي الإصرار علي اجتياحها، أنفر من صوته اللاهث.. أغمض عيني، لا أريد أن أشاركه وهو يغتصب برضاي كل ما يقع تحت يديه من أعضائي التي تفر من يديه العابثة.. لو أصاخ السمع لها لسمع تأففها.. يتأوه يعتلي رفات ترفضه لكنها لا تملك أن تذوده عن الأوعية التي يلعق منها منتشيا، رغم تلاحم أجزاء الجسد في بؤرة التقاء لكن الأجزاء تكتفي بالتغوط في الآخر ربما لو تماست أرواحنا لاقتنصنا لحظة النشوي لكنها أبدا لم تفلح في الاقتناص..

انتهى العرض الهزلي.. يسود الصمت.. أنهض ألملم جسدي الواهن لم يخرج إلا ببقايا لطقوس يكرهها.. بقايا لا تخصه ينفر منها.. أسرع لامحو عنه بصمات يديه وقبلاته التي

تحرق مسام جلدي. . لتتساقط مع رغاوي الصابون. . لكن كيف أغسل وقعها من كف روحي.

***

يحملني القطار السريع إلى القاهرة، لأصلها الساعة الثانية ظهراً، لتتبقى سويعات على موعد إقلاع الطائرة، ألقى بحقائبي على ظهر التاكسي، الازدحام شديد في الشوراع، ضوضاء تدهمني من كل جانب، يلفح وجهي الهواء ساخنا مشبعا بالأتربة، غزت عيني فالتهبت بسياط دموع، أسرعت بغلق الجزء المفتوح من النافذة، أرتشف جرعة من المياه المعدنية بتأفف فقد طالتها سخونة الجو، أحاول تحريك ساقي التي أصابها الخدر من الجلوس ساعات طويلة، أسمع رنين هاتفي الخلوي، كان هو، يطمئن على وصولي، تمنيت لو أنني أتحول إلى ذرات هواء، كيان هلامي، أذوب داخل مسامات الريح لتحملني إليه، أو إلى عالم لا أعرف كنهه ولكنه لنا وحدنا أبوابه موصدة لا تخترقها معاني الألم والوحدة. . بدأت تتقوض حبال صبري، وتتواثب اللهفة حولي تدعوني لأحلق على جناح قوة غير منظورة، تمرق على طول هذا الشرود الذي بلا ملامح، متون الأحلام الوارفة غصونها.

أخيراً دخلت صالة الانتظار، وجدت الكثير من الأدباء هنا وهناك، بحثت عنه بعين متلهفة، حتى وجدته يقف مع إحدى المذيعات، والتى أقل ما توصف به أنها تحمل عقلاً فارغاً ووجها يجمع على صفحته كل أنواع المساحيق.

ادعيت انشغالى بالبحث فى حقيبة يدى، عندما لمحته يتجه نحوى باسما:

- هل ما تبحثين عنه أهم منى؟

- وهل من تقف معها أهم من انتظارى؟

أقولها وأنا أنظر للأرض، غاضبة.. يبتسم من جديد، هامساً:

- أتغارين، وهل فى قلبى مساحة لغيرك، فعالمى يتحدد بين أنامك.

ترضينى كلماته، فأترجل عن كبوة غضبى، أتمتم:

- كم أشتاق إليك، ليتك تعلم مقدار حبى لك.

- وأنا أحبك فوق حدود البشر، فوق أى مقياس، فوق أى عدد.

من جديد نغيب عن عالم البشر المحدود، نصبح نقطة ضوء شارد لا تقيده حدود، يسقط من ذاكرته منطقية الزمان والمكان والحدود، أغمض عينى، كى تنتهى جولتنا السريعة حول تخوم اللاوعى، أستجمع خيوط الوقت، ننشطر من جديد اثنين.

نجلس فى مقاعدنا بالطائرة، أنا فى الصف الأيمن وهو فى الأيسر على الممر، يسبقنى بثلاثة مقاعد، من وقت لآخر كان يفتعل أى مبرر لينظر إلىّ مبتسماً، تناولنا وجبة سريعة، ثم غفوت لا أعرف الوقت الذى مر علىّ نائمة، وعندما استيقظت وجدته بجوارى، انتفضت وكدت أصيح بفرح، لكنه عاجلنى بوضع يده على فمى، أول مرة تلمسنى يده، وأكون على هذا القرب منه، صمتّ مندهشة، فأسرع وأبدى أسفه، فهززت رأسى، بما يعنى قبول اعتذاره، ثم أردفت:

- منذ متى وأنت بجانبى، وكيف تم ذلك؟

- طلبت من المصور الذى بجانبك تبديل مقاعدنا، وأغريته بالجلوس بجانب المخرج ليطلب منه العمل فى برنامجه الجديد.

- أنت ماكر، لماذا لم توقظنى؟

- وأحرم نفسى من رؤية وجه الملاك!

ابتسمت بخجل، أسندت رأسى على ظهر المقعد، أنظر إليه، تناول يدى المرتعشة بين كفيه، ثم لثمها، شعرت بخيوط دفء تنبعث من أنفاسه، تجعلنى أدور حول الأرض ألف دورة، وأسقط فى دوامة تتساقط داخلها كل الوجوه، كل الحروف ما عداه هو.

يأتينى صوت مكبر الصوت: وصلنا لتونس، الأرض الخضراء.

أوصلنا الأوتوبيس إلى الفندق، فى فجر هذا اليوم تم تحديد الغرف لأعضاء البعثة، بمجرد دخولى الغرفة اتصل بى:

- حبيبتى، تصبحين على خير وصباح الخير فى يوم جديد لنا معاً.

- تصبح على خير.

بمجرد تبديل ملابسى، نمت بعمق حتى العصر، تهيأت لتناول الطعام، كان وجودنا معاً يغمرنى بسعادة تفوق الوصف، تجاوز الحد الذى يحتمله قلبى، كنت أخاف دائما عندما أشعر بالسعادة،

ليس بطبعى التشاؤم لكنه الحذر الذى وعيته منذ صغرى وأحرص عليه، كى آمن غدر اللحظة المواتية.

كان الافتتاح على مستوى راقٍ، ودرجة عالية من التنظيم، استقبلنا بحفاوة، وحظينا بكل التسهيلات الممكنة من القائمين على المؤتمر، لكى ينجز كل منا عمله على أكمل وجه.

كنا نبتعد فى مقر المؤتمر، ونقترب وعين كل منا تحرص وتراقب الآخر، حتى انتهت الليلة الأولى من وقائع المؤتمر عدنا للفندق، وفى ردهة الاستقبال طلب منى تجهيز نفسى للخروج معه بعد ساعة من عودتنا. ترى هل الجو بهذا الجمال، أم سعادتى كست كل شىء حولى ببعض منها وأنا أسير معه تتعانق أيدينا، بل يمنحنى بعض المساحة للهو بخطوات عابثة تسبقه، ثم أعود بجانبه وأنا أضحك كطفلة يدللها أبوها، ونجتاز إشارات المرور، يقبض بقوة على يدى، يخشى علىّ من السيارات، رغم أن الوقت متأخر ونادراً ما نرى سيارة تمر.

أقف فى منتصف الطريق، أقول مداعبة:

- ما رأيك أن نذهب لدنيا نجهل طريق العودة منها؟

- لو أعرف مكانها لذهبنا إليها بلا عودة.

أشعر بحزن، يخشرج نبرة صوته، أى دفء وحنين فى صمته وهمسه، كيف لا أحبه وهو يسكن روحى.

- مضطر أن أرى بعينيك.

قالها مباغتة، وأطلق من شراع روحه طوافة سرمدية، تخترق ممرات قابعة بين عناقيد الفقد، ليحرر منامة روحي ويحيك لي حلة مطر، تشاغب عجاف الأيام وتنبت في سنبلة حرفي طلاء مقلتيه، لأرى مدائن لم تكتشف إلا في مرايا السندباد..

لم أشعر كيف اقتربت أنفاسه من وجهي حين التفت نحوي ليرى انعكاس القمر في عينيّ.. شعرت بخدر في أطرافي ودفء يستبد بجسدي، ترتعش شفتاي تطلبان أن تعانقا كلمة حب مطوية على شفتيه.. يقترب.. يلف ذراعيه حول خصري.. دفء أنفاسه يلفح وجنتي.. تتسلل ارتعاشة علي جيدي.. تنهار كل مقاومة لي.. بل لم أبد أي مقاومة.. أغمضت عيني.. يترك كلمة علي شفتي المرتجفة.. أجدت تفسيرها وأسهبت في الشرح.. كل كياني ينتفض يريد المزيد.. أصدر حروف قصيرة لم أعهدها.. أسترجع صداها.. آهة.. يملك لغة أجاد بها فك

طلاسم الجسد الرافض للاحتواء.. امتثلت لرغبة لم تنقر كياني من ذي قبل، يقطع هذا الهمس إشارات ضوئية من إحدي السيارات العابرة.. نهجر لحظة اللاوعي.. نرتدي حلة الوعي من جديد.

***

تتوالى أيام المؤتمر، يتجدد لقاؤنا، يزدهر نبت الحب بين قلبينا، تتوحد روحانا، رغم أن اتصال زوجي من وقت لآخر، ربما يدينني بالجرم، يجعلني أشعر بالخوف من ضياع حبي.. حلمي.. ابنتي سهاد.

منذ أن أطلقت جدائل حلمي، مقيدة في وتد من ثلاثة عيون، ترفل في رهافة روحي.. تئن.. تتشبث بالغد لعله يمنحها بعضا من ألوان قزح، تتحامل على النظرات المترجية ألا تضعف أن تنهل من إبريق أفروديت، فلا يحق لي الهروب من الساحة، أحملهم في فوهة جرحها تتقافز بهم لأعلى حدود المستحيل، يجهدني الطريق أشعر بثقل الحمولة على بقايا أنفاسي، أترك الحضن الأخضر، يلتفت إليهم وريد مسفوح في الطرقات، تهدر المواقيت النداء.. لا هروب من الميدان..

الفصل التاسع عشر

كانت جلسة الختام للمؤتمر، بمثابة عزاء، وداع لكل السعادة؛ عدنا للواقع، كم اشتقت لسهاد، وكل الناس هنا، ولكنى أشعر بشيء يقف بينى وبين صلاح، صعب اختراقه..

رجعت لعملى، هشام كان معى دائما على اتصال، صباحاً ومساءً، مرت شهور تفاقمت المشاكل بينى وزوجى لشعوره بنفورى واهتمامى بسهاد بشكل مبالغ فيه، حتى أننى أصبحت أنام فى حجرتها، دون ضرورة لذلك، وبلغت أمى شكواه، فنهرتنى بطريقة لم أعهدها منها من قبل:

- هل أخذك الغرور وتكبرت على زوجك؟

- أريد الطلاق.

- طلاق!

- لا أستطيع الاستمرار معه.

- هل جننت؟

- ماما أرجوك، لم أعد طفلة، أعرف مصلحتى.

- مصلحتك، نسيت ابنتك؟

- بالطبع لا، ستظل معى، وسيظل هو أباها.

- أريد سبباً واحداً؟ هل تعرفين رجلاً غيره؟

- لا... لا...

- تكذبين.. أشعر بذلك من فترة، لكنى كذبت نفسى.

- ماما.. أنا... أنا

أشعر بدوار، أكاد أسقط على الأرض.. أرى صورة مهزوزة، لا أستطيع تحديد الوجوه، لكنى أشم رائحة برفان، وأشعر بقطرات ماء، تنثر على وجهى.

- إيمان... إيمان.

أخى مصطفى، يجلس بجوارى على السرير، وأمى واقفة وسوسن تحمل كوب ماء.

- مبروك أنت حامل.

- حامل!

- فى شهرين.

أحاول استيعاب الأمر، أنا حريصة على تناول الحبوب بشكل منتظم، فكيف حدث الحمل؟.. لقد تذكرت قبل سفرى بحثت عنها فى حقيبتى ولم أجدها، أعود لواقعى من جديد، أنظر لأمى بخجل، وهى تمسد على شعرى قائلة:

- مبروك يا حبيبتى.

أنهض معتمدة على ذراعها.. أتحقق مما أسمع ربما أعاني من الهذيان.. يدخل صلاح وتسير سهاد بجانبه..

- مبروك يا إيمان.

ثم يضيف:

- بمجرد اتصال الحاجة بى أسرعت بالحضور.

- تفضل يا صلاح، سأعد المائدة لنتناول الغذاء كلنا.

قالتها أمى، وأخذت معها سوسن وسبقهما مصطفى.

- الآن عرفت سبب تغيرك وغضبك.

- ماذا تقصد؟

- قرأت على النت أن الحمل، يؤثر على الحالة المزاجية للأم.

أطرقت في صمت ولم أرد.

تمت

obeikandl.com

المحتويات

- الاهداء..... ص٥
- الفصل الأول..... ص٦
- الفصل الثانى..... ص٢٠
- الفصل الثالث..... ص٢٨
- الفصل الرابع..... ص٣٦
- الفصل الخامس..... ص٤٢
- الفصل السادس..... ص٥١
- الفصل السابع..... ص٦٠
- الفصل الثامن..... ص٧٢
- الفصل التاسع..... ص٩٣
- الفصل العاشر..... ص١٠٢
- الفصل الحادي عشر..... ص١٠٧
- الفصل الثاني عشر..... ص١١٦

obeikandl.com

- الفصل الثالث عشر. ص١٢٥
- الفصل الرابع عشر. ص١٣٦
- الفصل الخامس عشر. ص١٤٧
- الفصل السادس عشر. ص١٦١
- الفصل السابع عشر. ص١٧٢
- الفصل الثامن عشر. ص١٧٧
- الفصل التاسع عشر. ص١٨٧

obeikandl.com